البرت اشفيتسر

وفلسفة الحضارة

المؤلف : البرت اشفيتسر
ترجمة : الدكتور عبد الرحمن بدوى
مراجعة : الدكتور زكى نجيب محمود

الناشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة
٤١٩ ص ١٧ X ٢٤ سم الثمن ٣٥ قرشا

من الأقوال المأثورة أن بعض الناس يولدون عظماء وبعضهم يكتسبون العظمة وبعضهم الآخر تساق اليه العظمة ، ولست واثقا من معرفتى للطبقة التى يمكن أن ينتسب اليهـــا البرت اشفيتسر بين هذه الطبقات الثلاث ، فهو من الشخصيات المعاصرة ، والمعاصرة كثيرا ما تغرى بالمبالغة سواء فى المدح والقدح وتعوق صحة الحكم واستيفاء التقـــدير ، والذى يمكن أن يقرره الانسان مطمئنا فى صدد مثل هذا الرجل البـــارز الممتاز أنه أعجوبة من عجائب العصر فى تعدد مواهبه وسير حياته ، فهو يحمل اجازات الدكتوراه فى اللاهـــوت والفلســـفة والطب والموسيقى ، وله مؤلفات هامة فى اللاهـــوت والفلسفة والموسيقى، وقد يجد الفلاسفة ثغرات للنقد فى فلسفته ، وقد لا يقره أقطاب المسيحية فى بعض تفسيراته لحياة السيد المسيح وبولس الرسول ، وقد يخالفه الموسيقيون فى تقديره لمكانة الموسيقار باخ ، ولكن الجميع لا ينكرون عليه اقتداره وكفايته وأصالة تفكيره ونفـــاذ نظراته .

وقد ولد البرت اشفيتسر فى قرية كيسربرج، سنة ١٨٧٥ وهى احدى القرى الصغيرة بالألزاس العليا ، وكان الابن الثانى للويس اشفيتسر أحد القساوسة الكاثوليك ، وكان جده لوالدته كذلك من رجال الاكليروس ، وبعد مولـــده بأسابيع انتقل والده الى قرية جونز باخ الصغيرة وأقاما بها ، وقد مات لويس اشفيتسر سنة ١٩٢٥ وقد روى لنا البرت اشفيتسر فى ايجـــاز أليم ان والدته توفيت قتيلة تحت سنابك جياد الفرسان سنة ١٩١٦ .

وكان تفوقه فى الموسيقى أسبق آيات نبوغه، ففى التاسعة من عمره استطاع أن يجيد العزف على الأرغن ، ومما ساعده على اتساع نطـــاق التحصـــيل وكثرة التزود من ضروب المعرفة وثاقة بنيانه وفرط ابده الذى فاق المألوف ،



بقلم رئيس التحرير

وقد روى اشفيتسر قصة حياته وجهاده فى كتابه « حيــاتى وفكرى » وقد مكنته قوته الخارقة وعزيمته الصارمة من القيام بالأعباء المضنية التى فرضها على نفسه وتحدى بهـــا قدرته ، وقد ذاعت شهرته وهو يعمل طبيبا فى المستشفى الذى انشـاه فى لامبرين بالكنغو الفرنسية ، **وكان الباعث على ذهابه الى هذه المنطقة الاستوائية شعوره بعظم المواهب التى اختص بها ، فقد كان موفقا فى حياته المنزلية وناجحا فى عمله ومتمتعا بصحة جيدة ، وقدر هــذه المنح ، ورأى أنه من الأنانية أن يستغلها جميعا لذاته ، وأطماعه ولباناته ، وعدها فريضة عليه وقفها على خدمة الانسانية** ، وحدد بلوغه الثلاثين من عمره للبدء بوفاء الدين ، وفكر فى بادىء الأمر أن يعمل على اصلاح حال المتشردين وطريدى السجون ، ولكنه آثر بعد ذلك الذهاب الى افريقية ليؤدى ضريبة الحضارة الأوربية فى اصلاح أحوال الأمم المتخلفة والأقوام البدائيين المستغرقين فى الجهالة والأوهـــام والخرافات وساء ذلك أصدقاءه ومريديه وعجبـــوا كيف يعرض مثل هذا الرجـــل عن المستقبل اللامع والحاضر الحافل بالجهود الموفقة ويذهب الى أعماق ما كانوا يسمونه بالقارة المظلمة ليرعى قوما لا ينتسبون الى اى سلالة من السلالات التى انحدر منها الأوربيـــون ولهم عاداتهـــم وتقاليدهم التى لا يسهل حملهم على تغييرها أو تعديلها وتلطيف حدتها ، ولم يكن اعتزامه القيام بهذه التضحية وتصميمه عليها من الأمور السهلة الهينة ، قال يصف حالته حينما نوى السفر .

« الامتناع عن الوعظ والقاء المحاضرات كان تضحية كبيرة منى ، وقد تحاشيت بقـــدر المستطاع قبل ذهابى الى افريقية أن أمر على كنيسة سانت نيقولاس أو على الجامعة لأن رؤية الأماكن التى عملت بها أعمالا لا أستطيع أن استانف القيام بها كانت تثير فى نفسى ألما بالغا ، وحتى اليوم لا أستطيع أن أحتمل النظر

الى نوافذ حجرة المحاضرات الواقعة فى شرق مدخل بناء الجامعة الضخم لاننى كنت القى محاضراتى فى ذلك المكان » .

والمبدا الذى منحه هذا الفيلسوف اللاهوتى كل ما فى نفسه من اخلاص وولاء هو ما اسماه « توفير الحياة » ، والحياة فى راى اشفايتزر مقدسة ، وهو لا يقر احتمال الشقاء ومعاناة الموت والاستهداف للتضحية الا اذا كان ذلك كله من اجل الحياة وفى سبيلها . .

(١) « كلما اوذى حياة من اى نوع ينبغى ان اتبين بكل وضوح هل هذا امر لا مفر منه ، اذ يجب على ألا اتجاوز ما لا سبيل الى تجنبه ، حتى لو بدا امرا هين الشان ، فالفلاح الذى حسن آلاف الأزهار علفا لأبقاره يجب أن يحترس وهو عائد الى بيته فلا يقطع عنق زهرة واحدة على سبيل التسلية فى الطريق ، لأنه بذلك يرتكب اثما ضد الحياة دون أن تلجئه الضرورة الى ذلك » .

ويقول فى الترفق بالحيوان (٢) « فى كل مرة يرغم حيوان على خدمة الانسان ينبغى على كل منا أن يهتم بالآلام التى لابد أن يعانيها الحيوان فى هذا السبيل ، ويجب الا يسمح الانسان بوجود آلام ليس مسؤولا عنها اذا كان يستطيع منعها على اى نحو ، وينبغى عليه الا يهدىء ضميره بدعوى انه يتدخل فيما لا يعنيه ، ولا ينبغى لأحد أن يغلق عينيه عن الآلام التى يشيح ببصره عنها ويحسبها غير موجودة ، وما لأحد أن يعتقد أن عبء مسؤوليته عن هذا عبء خفيف ، اننا جميعا نشترك فى الذنب حينما نرى المعاملة المسيئة للحيوان تاخذ مجراها ، وحينما لا نسمع لأنين الحيوانات العطاش المحمولة على الطرق الحديدية ، وحينما نرى الحيوانات تعانى الآلام فى مطابخنا وهى تذبح بايد غير ماهرة : وحينما نرى الحيوانات تلقى معاملة قاسية من أناس لا قلوب لهم أو تترك للعب الأولاد القاسى وتسود الوحشية فى

(١) صفحة ٣٨٩ من الترجمة العربية .

(٢) صفحة ٣٩٠ من الترجمة العربية .

اماكن الذبح . . (٣) ان اخلاق توفير الحياة تزعنا من ان نعتقد بصمتنا اننا لا نعانى بعد كاناس يفكرون ما يجب ان نعانيه ، انها تحثنا على ان يدع بعضنا بعضا حساسا بالنسبة الى ما يضايقنا وان نتحدث ونعمل معا ، كما تدفعنا المسؤولية التى نشعر بها ودون ادنى شعور بالخجل ، وهى تجعلنا نشارك فى التطلع الى المناسبات والظروف التى تمكننا من تقديم العون الى الحيوان ، وان نرتب ما يخفف الشقاء الذى يفرضه الناس على الحيوان ، وان نخرج بذلك لحظة من فزع الوجود الرهيب » .

وفيما يتصل بعلاقة الانسان بالانسان يقول اشفايتزر (٤) « فيما يتصل بعلاقاتنا مع سائر الناس تلقى اخلاق توفير الحياة على عاتقنا مسؤولية مروعة ، انها هنا ايضا لا تقدم لنا قواعد عن المدى المسموح به للمحافظة على النفس، وتتطلب منا فى كل حالة ان ندرس المسالة مع اخلاق التفانى المطلقة ، وعلى ان اقرر وفقا للمسؤولية التى انا شاعر بها كم من حياتى وممتلكاتى وحقوقى وسعادتى ووقتى وراحتى ينبغى ان اكرسه للآخرين، وكم أحتفظ به لنفسى، وفى مسالة الممتلكات تتخذ اخلاق توفير الحياة موقفا فردانيا واضحا ، بمعنى ان الثروة المكتسبة أو الموروثة يجب أن توضع فى خدمة المجموع ، لا عن طريق اجراءات يتخذها المجتمع ، ولكن عن طريق قرار حر حرية مطلقة يتخذه الفرد بنفسه ، انها تنتظر كل شىء من ازدياد الشعور بالمسؤولية، وتنظر الى الثروة على أنها ملك للمجتمع ترك تحت السيطرة المطلقة للفرد ، فبعض الناس يخدم المجتمع عن طريق مشروع يكسب بواسطته عدد من المستخدمين عيشهم ، والبعض الآخر يخدم المجتمع بان يتنازل عن ثروته لمعاونة اخوانه، وبين هذين الطرفين الأقصيين من الخدمة لندع لكل ان يقرر وفقا للمسؤولية التى تحددها له ظروف حياته . . والثروة يجب أن تصل الى المجتمع بطرق متنوعة كل التنوع اذا أريد أن ينتفع بها الجميع الى الحد الأقصى » .

(٣) صفحة ٣٩١ من الترجمة العربية .

(٤) صفحة ٣٩١ من الترجمة العربية .

وقد جعل اشفايتزر من سير حياته مثالا لما يدعو اليه، فذهب الى بلاد شقيت تحت وطأة حكم الرجل الأبيض وعنفه وقسوته وافتنانه فى أساليب الاستغلال ، ولم يعبأ بما كان يقوله دعاة الشعوبية المتطرفين وانكارهم على الافارقة القابلية للتقدم ورميهم بالارتكاس فى التخلف والهمجية ، وبحسبه ان قومه الأوربيين قد أساءوا اليهم وان التكفير عن هذه الاساوة دين لهم فى عنقه يطالبه ضميره بوفائه ، وقد اشار فى كتابه « على حافة الغابة البدائية » الى الامراض التى تفتك بالناس فى تلك المنطقة التى ذهب اليها والى تبعة الأوربيين فى جلب الأمراض اليها ، وقد وصف اشفايتزر فى كتابه شدة البؤس الذى يعانيه سكان تلك المنطقة فهم يقضون أيامهم فى خوف دائم من معبوداتهم ومعتقداتهم الخرافية المزعجة ولا يخفون الى مباشرة اى عمل من الاعمال ، وقد اضطر ذلك اشفايتزر الى مضاعفة جهوده فى انشاء المستشفى الذى اقامه فى لامبرين ، فكان يشارك فى قطع الاخشاب ودق المسامير ويحمل الواح الخشب السميكة ، وقد روى انه لمح مرة وهو يقوم بذلك احد الزنوج مرتديا حلة بيضاء وجالسا الى جانب احد المرضى وقد جاء لزيارته ، فاستنجد به لمساعدته فى حمل الألواح الخشبية فقال له « انى رجل مثقف وليس من شأنى ان اجر الأخشاب » فأجابه اشفايتزر قائلا « **انك حسن الحظ ، لقد حاولت ان أكون مثلك مثقفا ولكنى لم أنجح** » وبطبيعة الحال لم يكن بعض الناس قادرين على تقدير مدى التضحية التى قام بها هذا الرجل العظيم ، وقد عرف اشفايتزر الكثير من عيوب هؤلاء الناس الذين ضحى من أجلهم بالكثير واحتمل فى سبيل اصلاح احوالهم والنهوض بمستواهم ما يعجز غيره عن احتماله ، ولكنه عرف كذلك مزيتهم الأخلاقية الكبرى وهى قوة الشعور بالعدالة التى لم تفسدها مجافاة الطبيعة وتقاليد الحضارة ، وقد جهد فى استصلاح الأرض المجاورة للمستشفى حتى نشأت الى جانبه قرية انموذجية بل بلدة صغيرة تدفع عادية المجاعة التى كانت ما تنفك تهدد نزلاء المستشفى والعاملين به .



ولم يصرفه عمله فى المستشفى عن موالاة الاطلاع ومتابعة التفكير فى مشكلات الحياة والمجتمع والتوفر على التأليف ، ومن اهم المؤلفات التى كتبها هذا الكتاب الذى أسدى الدكتور عبد الرحمن بدوى يدا غراء الى قراء اللغة العربية بنقله اليها ، والكتاب قسمان ، القسم الأول خاص « بانحلال الحضارة واعادة بنائها » والقسم الثانى عنوانه « الحضارة والأخلاق » وقد ذكر اشفايتزر فى المقدمة ان لهذا الكتاب قسما ثالثا يدعى « النظرة العالمية فى تمجيد الانسان » وقسما رابعا « يعنى بالدولة المتحضرة » ولا أعرف شيئا عن ظهور هذين القسمين ، ويقول اشفايتزر فى هذه المقدمة(1) « **لما بحثت فى ماهية الحضارة وطبيعتها تبين لى فى ختام المطاف أن الحضارة فى جوهرها اخلاقية ، وأنا أعلم أن تقرير الأمر على هذا النحو اعنى القول بأن مشكلة الحضارة مشكلة اخلاقية سيثير الدهشة بل والاشمئزاز فى نفوس ابناء هذا العصر الذين اعتادوا التعلق بالاعتبارات التاريخية والمادية والجمالية ، ويخيل الى مع ذلك ان بى من النزعات الفنية والتاريخية ما يمكننى من تقدير العناصر التاريخية والجمالية فى الحضارة ، وانى بوصفى طبيبا وجراحا عندى من الروح العصرية ما يجعلنى قادرا على تقدير روعة ما بلغه هذا العصر من التقدم فى النواحى الصناعية والمادية ، ولكن برغم هذا كله فانى على يقين من ان العناصر الجمالية والتاريخية والاتساع الرائع فى معارفنا المادية وقوانا كل هذا لا يكون جوهر الحضارة ، وانما يتوقف هذا**

(1) راجع صفحة ٣ و ٤ و ٥ من الترجمة العربية .

الجوهر على الاستعدادات العقلية عند الأفراد والامم القاطنة فى العالم ، وما عـدا هذا فليس الا ظروفا مصاحبة للحضارة لا شان لها بجوهرها، والأعمال المبتكرة والفنية والفعلية والمادية لا تكشف عن آثارها الكاملة الحقيقية الا اذا استندت الحضارة فى بقائها ونمائها الى استعداد نفسى يكون اخلاقيا حقا ، ذلك ان الانسان لن تكون له قيمة حقيقية بوصفه شخصية انسانية الا من خلال كفاحه ليكون ذا خلق وخلال حسنة ، وتحت تأثير المعتقدات الأخلاقية وحدها تكونت مختلف العلاقات فى المجتمع البشرى على نحو يسمح للأفراد والشعوب أن تنمو وتتطور بطريقة مثالية ، واذا أعوز الأساس الأخلاقى تداعت الحضارة ، حتى لو كانت العوامل العقلية والخلاقة أيا كانت قوة طبيعتها تعمل عملها فى اتجاهات أخرى ، وهذه النظرة الأخلاقية الى الحضارة وان جعلتنى كانى غريب وسط الحياة العقلية فى هذا العصر فانى اعلنها بوضوح ودون تردد كيما اثير فى نفوس أبناء هذا العصر التفكير فى حقيقة الحضارة ، ولن نفلح فى اعادة بناء حضارتنا على اساس ثابت وطيد الا اذا تخلصنا نهائيا من الفكرة السطحية عن الحضارة ـ هذه الفكرة التى نتشبث بها وتملك علينا انفسنا ثم تأخذ من جديد بالنظرة الأخلاقية التى سادت فى القرن الثامن عشر ، والأمر الثانى الذى أود أن يتداوله الناس هو أمر العلاقة بين الحضارة وبين نظريتنا فى الكون ، وهى علاقة لا يعيرها أحد التفاتا فى الوقت الحاضر ، فان العصر الذى نعيش فيه يعوزه ادراك أهمية الظفر بنظرية فى الكون ، فان الاعتقاد العام فى هذه الأيام سواء لدى المتعلمين وغير المتعلمين هو أن الانسانية ستتقدم على نحو مرضى تماما دون حاجة الى أية نظرية فى الكون على الاطلاق ، والواقع أن كل تقدم انسانى يتوقف على التقدم فى نظريته فى الكون ، وعلى العكس نجد أن كل انحلال سببه انحلال مماثل فى نظريته فى الكون ، وافتقارنا الى حضارة حقيقية مرجعه الى افتقارنا الى نظرية فى الكون ، وحينما يتهيأ لنا الوصول الى نظرية قوية ثمينة فى الكون نجد فيها اعتقادا قويا ثمينا ، هنالك فقط يكون فى وسعنا ايجاد حضارة جديدة ، وهذه الحقيقة التى قد تبدو مجردة ظاهرة المفارقة هى التى أومن بها وأناضل عنها وارى نفسى بطلها)) .

ويسترسل اشفايتزر فى بيان سمات الحضارة فى تلك المقدمة النفيسة فيقول (١) ((ان الحضارة بكل بساطة معناها بذل المجهود ، بوصفنا كائنات انسانية ، من أجل تكميل النوع الانسانى وتحقيق التقدم ، من أى نوع كان ، فى أحوال الانسانية وأحوال العالم الواقعى ، وهذا الموقف العقلى يتضمن استعدادا مزدوجا ، فيجب أولا أن نكون متاهبين للعمل ايجابيا فى العالم والحياة ، ويجب ثانيا أن نكون أخلاقيين ، ولن نستطيع القيام بمثل هـذا العمل بحيث ينتج نتائج ذوات قيمة حقيقية الا اذا كنا قادرين على أن نهب العالم والحياة معنى حقيقيا ، وطالما نظرنا الى وجودنا فى العالم على أنه عديم المعنى فلا معنى أبدا للرغبة فى احداث أى أثر فى هـذا العالم ، فنحن لا نعمل من أجل ذلك التقدم الروحى العام والمادى الذى نسميه الحضارة الا بالقدر الذى به نؤكد أن العالم والحياة كليهما ينطوى على نوع من المعنى ، وبعبارة أخرى الا بالقدر الذى نفكر به تفكيرا متفائلا)) .

ويعلل ظهور الحضارة بقوله (٢) ((ان الحضارة تنشأ حينما يستلهم الناس عزما واضحا صادقا على بلوغ التقدم ويكرسون أنفسهم تبعا لذلك لخدمة الحياة وخدمة العالم ، وفى الأخلاق وحدها نجد الدافع القوى الى مثل هذا العمل، فنتجاوز حدود وجودنا ، ان شيئا ذا قيمة لم يتحقق فى هذه الدنيا الا بالحماسة والتضحية بالنفس ، ولكن لا سبيل الى اقناع الناس بحقيقة توكيد الحياة والدنيا وبالقيمة الصادقة للأخلاق ـ لا سبيل الى اقناعهم عن طريق الدعوة والوعظ ، بل لابد أن تنشأ العقلية الايجابية الأخلاقية التى تمتاز بها هذه المعتقدات ـ فى الانسان نفسه كنتيجة لصلة روحية باطنة بالعالم ، فحينئذ ، وحينئذ فقط تكون معتقدات

(١) المقدمة صفحة ٥ .

(٢) المقدمة صفحة ٥ .

قوية واضحة راسخة تكيف كل افكاره وافعاله، وبعبارة اخرى ان توكيد العالم والحياة يجب أن يكون ثمرة التفكير فى العالم والحياة ، ولن تتقدم الحضارة المستمرة الحقيقية الا اذا وصلت غالبية الأفراد الى هذه النتيجة فى الفكر واستمروا يعملون تحت تأثيرها ، أما اذا بدأ الاستعداد العقلى ـ فيما يختص بتوكيد الحياة والعالم وفيما يتصل بالأخلاق ـ نقول اذا ما بدأ فى الذبول أو أصبح غامضا مظلما فلن نكون قادرين على العمل من أجل الحضارة الحقيقية ، بل وأكثر من هذا لن نكون قادرين حتى على تكوين فكرة صحيحة عما ينبغى أن تكون عليه مثل هذه الحضارة ، وهذا هو المصير الذى انتهينا اليه ، لقد فقدنا كل نظرية فى الكون ، ولهذا فاننا ـ بدلا من ان تشبع فينا روح قوية عميقة لتوكيد الحياة والعالم ـ نقول فاننا نسمح لأنفسنا ، سواء بوصفنا أفرادا وأمما ، أن نساق ها هنا وها هناك بنوع من التوكيد مختلط وسطحى معا ، وبدلا من أن نتخذ موقفا اخلاقيا محددا نعيش فى جو مشحون بالجمل الاخلاقية او نعد أنفسنا شكاكا أخلاقيين)) .

ولكن كيف انساق العالم الى هذا المأزق ؟ يقول اشفايتزر ردا على هذا السؤال (١) ((السبب هو ان نظرية الكون المؤكدة للحياة والعالم الأخلاقية لم يكن لها أساس ثابت مقنع فى الفكر ، ولطالما حسبنا اننا وجدنا مثل هذا الأساس ولكنها فقدت قوتها دون أن نكون على علم بذلك ، حتى اضطررنا أخيرا منذ أكثر من جيل الى الاذعان الى نقص كامل وافتقار الى أية نظرية فى الكون على الاطلاق)) .

ويلخص فكرته الأساسية فى الابقاء على الحضارة بقوله (٢)((الفكرة الأساسية فى نظريتى فى الكون هى ان علاقتى بوجودى وبالعالم الموضوعى انما تتحدد بتمجيدى للحياة ، وهذا التمجيد للحياة ينظر اليه على أنه عنصر فى ارادتى للحياة،



عنصر يصبح واعيا بنفسه كلما فكرت فى حياتى وفى العالم ، وفى الموقف العقلى الخاص بتمجيد الحياة ، والذى يجب أن يميز صلتى بكل اشكال الحياة تندرج الأخلاق وتوكيد العالم والحياة ، وما يحدد صلتى بوجودى وبالوجود الذى القاه فى العالم ليس أى نوع من أنواع النفوذ فى الطبيعة الحقيقية للعالم بل هى بالأحرى ارادتى للحياة التى نمت قوة التامل فى الذات وفى العالم)) .

وفى ختام المقدمة يقول (٣) ((ليت شعرى كم من الناس سيقنعون أنفسهم بالسفر معى فى هذا الطريق ، لكن الأمر الذى أرجوه قبل كل شىء ـ وهذا هو جوهر المسالة كلها ـ هو أنه ينبغى لنا ان نعترف بان افتقارنا الكامل الآن الى أية نظرية فى الكون هو المصدر الاخير لكل الكوارث وألوان الشقاء التى يعج بها العصر الحاضر ، ولهذا يجب ان نعمل معا من أجل ايجاد نظرية فى الكون وفى الحياة ، حتى نستطيع بذلك ان نصل الى مستوى عقلى يجعلنا متمدينين فعلا وحقا)).

وواضح من هذه الأجزاء التى نقلتها من المقدمة ومن موقف اشفايتزر من مشكلة الحضارة بوجه عام ان تصوره للحضارة تصور أخلاقى قبل كل شىء ، والحضارة فى رايه ((مزدوجة الطبيعة وتحقق نفسها فى سيادة العقل اولا على قوى الطبيعة وثانيا على نوازع الانسان)) .

والسيطرة الأخلاقية على النوازع الانسانية اجل شأنا من السيطرة على الطبيعة ، والسيطرة على النوازع الانسانية معناها السيطرة الأخلاقية

(١) المقدمة صفحة ٧ .

(٢) المقدمة صفحة ٧ .

(٣) المقدمة صفحة ٧ .

التى تحملنا على ان يزيد الخير المادى والروحى للانسانية ولكل فرد وحتى لكل كائن حى ، وتوفير الحياة هو جوهر هذه السيادة الأخلاقية ، وهذه النزعة الأخلاقية القائمة على الرغبة فى الحياة وتوفير الحياة هى جوهر الحضارة ، وتقدمها اهم من تقدم الانسانية المادى ، **والحضارة معناها خلاصة التقدم فى ميادين الخلق البشرى المؤدى الى اكتمال الفرد والجماعة من الناحية الأخلاقية ، فالتسامى الأخلاقى له المكانة الأولى فى نظرية هذا المفكر الأخلاقى الكبير .**

والحضارة الأوربية المعاصرة فى رأيه تعانى اعراض التحلل والانهيار ، وقد بدأ هذا التدهور منذ منتصف القرن التاسع عشر وأخذ يغذ السير ، وانحلال الحضارة الأوربية فى هذا العصر اشد خطرا وافدح عاقبة من الانحلال الذى أصاب الحضارات السالفة ، (٤) « **لأن الأرض لم يعد لديها احتياطى من الشعوب الموهوبة التى لم تستخدم بعد ، والتى يمكنها أن تنهض بنا أو تأخذ مكاننا وتحل محلنا فى مستقبل بعيد كقادة للحياة الروحية ، اننا نعرف الآن كل ما لدى الأرض من شعوب ، وليس منها شعب لم يشارك بنصيب فى حضارتنا بحيث تحدد مصيره الروحى بمصيرنا ، الشعوب كلها الموهوبة وغير الموهوبة ، البعيدة والقريبة ، كلها شعرت بتأثير قوى الهمجية التى تعمل عملها بيننا ، وكلها مثلنا مصابة بالداء ، ولن تبرأ منه الا بمقدار برئنا نحن منه »** والأزمة الراهنة ليست أزمة حضارة قوم من الأقوام او سلالة من السلالات وانما هى أزمة الحضارة الانسانية بوجه عام ، والسبب الرئيسى فى ذلك ــ كما حدث فى انحلال الحضارات السابقة ــ سبب أخلاقى ، لأن الحضارة تنهار اذا أعوزها العامل الأخلاقى حتى حينما تكون العناصر الخلاقة الأخرى فى الحضارة مزدهرة ناشطة ، وتقوم الأخلاق على الرغبة فى الحياة باعتبارها المبدأ العام وعلى نظرة عامة للدنيا تؤكد هذه الرغبة فى الحياة وتفسر الوجود جميعه فى ضوء توفير الحياة فى مختلف مظاهرها ، وازدهار الحضارة يصحبه دائما آداب توفير الحياة ونظرة شاملة للكون تبرر هذا الاتجاه الأخلاقى وتعمل على الأخذ به فى النظم الاجتماعية وسلوك الأفراد وتفكيرهم ، وفى الأزمنة التى سادت فيها هذه النظرة الى الكون مصحوبة بهذا الاتجاه الاخلاقى ازدهرت الحضارة ونمت ، وفى الماضى استجابت التاوية الكنفوشيوسية والهندوسية والبوذية فى الشرق وبعض الفلسفات اليونانية والفلسفات الأوربية التى تلتها لمطالب وجهة النظر الأخلاقية للكون ، وكانت الفلسفة الرواقية وبخاصة الفلسفات التجريبية والعقلية فى عصر الاستنارة اكثر استجابة من غيرها لهذه النظرة الكونية الأخلاقية ولذلك كانت الحضارات الرومانية اليونانية والحضارات الأوربية مقبولة نسبيا ، وقد كانت أوروبا فى القرن الثامن عشر متشبعة بتلك النظرة الكونية الأخلاقية التى تؤكد الحياة ، وحوالى منتصف القرن التاسع عشر توقف فجأة هذا الدافع الحيوى ، وكان السبب فى ذلك الاعراض عن اخلاق تأكيد الحياة ، وقد لاحت فلسفة القرن الثامن عشر بمثل عليا اخلاقية وحاولت أن تجعلها عملية بتوجيه الفكر والحياة الى الأخذ بها بوجه عام ، ولكن برغم نجاح تلك الفلسفة الباهر فانها لم تستطع الثبات للنقد الشديد الذى وجه اليها لأنها كانت تحمل فى ثناياها بعض جراثيم الضعف ولم تكن تملك القدرة الكافية لمواجهة الموقف ، وقد حاول كانت وجيتى وشيلر وفختة وهيجل وغيرهم ترميم البناء المتصدع ووضع اساس جديد لنظرة شاملة للحياة سليمة من العيوب والاخطاء ولكنهم لم يوفقوا فى ذلك لأن مذاهبهم كانت عرضة للنقد ، ولذلك اصبحت وجهة النظر الأخلاقية للكون مسلوبة القوة ، ولذلك أخذ العالم يتخبط فى الظلام الدامس .

وجاءت عوامل ثانوية استمدت قوتها من ضعف النظرة الكونية الأخلاقية فآزرت الانحلال السائد وزادت فى خطورته ، وباعث هذه العوامل موقف الانسان الاقتصادى ، **فانسان العصر الحاضر مرهق بالعمل ، وهذا الارهاق**

(٤) الفصل الرابع صفحة ٥٥ .



يحول بينه وبين القدرة على التأمل وحصر الذهن فى التفكير، ومن ثم قلة التفكير الخلاق وزيادة التفكير السطحى وانتشار الفوضى الأخلاقية ، والتصور اللا أخلاقى للحضارة ورجحان الجانب المادى على الجانب الروحى فى حضارتنا وزيادة التقدم فى المعرفة غير المكترثة والتكنية التى لا تقيم وزنا للنوازع الأخلاقية وذلك كله نتيجة محتومة للسبب الرئيسى للانحلال ، ولكن هذه العوامل بعد ظهورها تبدأ كذلك تلعب دورها وتؤثر تأثيرها فى اضعاف الحضارة وهدم بنيانها .

ولكن الموقف مع ذلك لا يبعث على اليأس ، ويمكن ايقاف عوامل الانحلال وأسباب الضعف عند حدها ، ويقتضى ذلك العمل على وضع اساس اخلاقى فلسفى للحضارة يستطيع الثبات للنقد ، ويعتقد اشفايتزر أن آراءه فى الأخلاق وفلسفة الحياة جديرة بأن تكون هذا الأساس .

وفى عرض لتاريخ المذاهب الأخلاقية والفلسفية مبتدئا بالتائية والكنفوشيوسية والهندوسية والبوذية ومنتهيا بالفلسفات الأوربية والأمريكية الحديثة يوضح أن هذه المذاهب والنظرات الكونية متفاوتة الدرجات فى الشمول والاستيفاء ، ففيها جميعها نوع من الثنائية بين النظرة الكونية والنظرة الى الحياة ، وبين المعرفة والارادة وبين النوازع الأخلاقية والعالم الطبيعى ، وقد حاولت هذه المذاهب والنظرات أن تجعل اساس القيم الأخلاقية قائما على خواص العالم الخارجى وحركاته وعملياته التى يمثلها العلم ، واخفقت هذه المذاهب والنظرات جميعها فى هذه المحاولة « (١)لأننا اذا أخذ العالم كما هو فمن المستحيل أن نعزو اليه معنى فيه أهداف الانسانية وغاياتها تجد أيضا معناها ، فلا توكيد العالم والحياة ولا الأخلاق يمكن أن يقوما على ما تقدمه معرفتنا بالعالم من معلومات عن العالم ، فاننا لن نجد فى العالم شيئا ذا تطور هادف فيه يجد نشاطنا معنى ، كذلك الجانب الأخلاقى لن نعثر عليه فى عملية تطور العالم على أية صورة كانت ، والتقدم الوحيد فى المعرفة الذى يمكننا تحقيقه هو أن نصف بدقة متزايدة الظواهر التى تؤلف العالم وبيان مضموناتها ، أما فهم الكل — وهذا ما تتطلبه النظرة الكونية — فهو أمر محال ، والواقعة النهائية التى تستطيع المعرفة اكتشافها هى أن العالم مظهر ، مظهر محير ، تتجلى فيه الارادة العامة للحياة »

ويقول اشفايتزر فى هذا الصدد « (٢)أعتقد أننى أول مفكر غربى تجاسر على الاعتراف بهذه النتيجة المدمرة من نتائج المعرفة ، وأول من يشك شكا مطلقا فى معرفتنا بالعالم دون أن اتخلى فى الوقت نفسه عن الايمان بتوكيد الحياة والعالم وبتوكيد الأخلاق ، والاستسلام فيما يتصل بمعرفة العالم ليس فى نظرى سقوطا فى هاوية شك يتركنا نسبح فى تيار الحياة كالسفينة التائهة ، بل أرى فيه مجهودا فى الأمانة لا بد أن نحاول القيام به ابتغاء الوصول الى نظرية فى الكون مفيدة تتراءى فى مدى النظرة وكل نظرة فى الكون لاتفلح فى الابتداء من الاستسلام فيما يتصل بمعرفة العالم هى نظرة مصطنعة ومجرد افتعال لأنها تقوم على تفسير للكون غير مقبول » .

وشفايتزر يبدأ من تلك الحقيقة الواضحة وهى « ارادة الحياة » وعنده أن هذه الرغبة هى الأساس الذى يقوم عليه البناء الشاهق الأخلاقى الفلسفى لتأكيد الحياة ، والرغبة فى الحياة تستطيع أن تغذى القوى الحيوية الكامنة فى نفسها وهى أسبق وأوضح مما تضمنه قول ديكارت « أنا أفكر ولذا فأنا موجود » وعنده أن المعرفة المستمدة من الرغبة فى الحياة أهم من المعرفة المستمدة من معرفة الدنيا ، ومعرفتنا

(١) صفحة ٦٤/٦٥ من الترجمة العربية .

(٢) صفحة ٩٥ من الترجمة العربية .

الآتية من العالم الخارجي معرفة ناقصة وخارجية وغير مؤكدة ، والمعرفة المستمدة من ارادة الحياة معرفة مباشرة ، فاسمى ألوان المعرفة اذا هى ان اعرف أن على ان اظل وفيا لارادة الحيـاة ، وارادة الحياة ومعرفتها لا يعتمـدان على اى شيء آخر خارجي عنهما ، بل أن ارادة الحيـاة اقدر على النفاذ الى أسرار الكون وكشف غوامضه من الملاحظة الخارجية ، وهى تقـدم لنا معرفة مباشرة حدسـية لحقيقـة الوجود تقصر عنها المعرفة العلمية .

ولا يرضى اشفايتزر عن اخضاع الانسان للآلة كل الرضى بل يحذرنا عاقبته ويقول « اننا نخضع قوى الطبيعة لخدمتنا عن طريق الآلات » ويروى اقصوصة البستانى التى ذكرها اتشوانج تسـية فى احدمؤلفاته ، فقد رأى احد تلامذة كونفوشـيوس بستانيا كان يتردد على عين من عيون الماء ومعـه دلوه ليروى أزهاره ، فسأله الا يريد ان يقلل من مجهوده ؟ فأجابه البستانى « كيف أسـتطيع ذلك ؟ » فقـال له تلميذ كونفوشـيوس « خـذ قطعة طويلة من الخشب واستعملها رافعة ، ولتكن ثقيلة الوزن من الخلف خفيفة من الأمام ، واغمسها فى المـاء تصعـد اليك بدون ادنى مجهود » ولكن البستانى وكان الى حد ما فيلسوفا أجاب « سمعت أسـتاذى يقول : اذا استعمل الانسان الآلات قام بكل أعماله كالآلة ، ومن سـار فى اداء شؤونه كالآلة يصبح قلبه مثل الآلة ، ومتى صـار قلب الانسـان كالآلة فى صدره فقد البسـاطة الحقة » .

والبحوث الأخلاقية والبحوث الجماليـة ليست بحوثا علمية فى رأى اشفايتزر وليس هناك مذهب علمى فى الأخلاق وانما يوجـد مذهب فكرى ليس غير ، والوقائع الأخلاقية كلها وقائع ذاتية ولا تنتظر البحوث الأخلاقية شيـئا من نظرية المعرفة .

ويتفق اشـفاتيزر مع فريق من فلاسـفة الحضارة فى اعلاء شأن المعرفة الحدسية المباشرة مثل اشبنجلر وشـوبارت وبرديايف والى حد ما مع نورثروب ويسـتخلص من ارادة الحيـاة اخلاقيـات تأكيد الحياة وتوقير الحياة والحب والتضحية وكل ما يدعو الى السلوك الأخلاقى والعلاقات الاجتماعية الحسنة ، ولا يتهاون فى تأكيد آداب حماية الحياة فى شتى مظاهرها ، فالأخلاق هى الوسيلة الأولى لتجديد حضـارة الغرب وحضارة الانسانية ، والسبيل الى ذلك هو بث أفكار تأكيد الحياة والنظرة الى الكون المصاحبة لها فى عقول الأفراد وسلوكهم ، واتباع ذلك بادماجهـا فى النظم الاجتماعيـة والثقافة العامة ، وهو لا يرينا الطرائق التى يمكن أن يتم بها ذلك ولكنه يؤكد لنا أنه لا سبيل بغير ذلك الى تقـويم الجانب الأخلاقى للانسان وتجـديد الحضارة ، فهو فى طليعة المدافعين عن الأخلاق والقائلين بأن القيم الأخلاقية لها المكان الأول فى الانسـانية والحضارة ، وفلسـفته من جميع نواحيها قائمة على ارادة الحياة ونستطيع أن نقول انها قائمة كذلك على ارادة الاعتقاد .

ويبدو من خلال حديث اشفايتزر عن العامل الأخلاقى فى الحضارة أن هذا العامل قائم بذاته وفى عزلة عن سائر العوامل التى تشترك فى تكوين الحضارة مثل الفنون الجميلة والقوانين والنظم الاقتصادية والسياسـية ، ولكن الواقع أن العناصر المكونة للحضارة متصل بعضها ببعض ، والتغيير الذى يطرأ على أى عامل منها يؤثر فى العوامل الأخرى ، فانحلال الأخلاق فى الحضارة الغربية يصحبه انحلال فى العناصر الحضـارية الأخرى ، وكذلك النظرة الكونية السـائدة فى أى مجتمع تتأثر بالأحوال الثقافية الغالبة على هذا المجتمع **واختيار اشفايتزر لعامل واحد من عـوامل الحضـارة وتركيزه الاهتمـام على هذا العـامل جعلـه لا يقدر العوامل الأخرى التقدير الملائم** ، كما أن تفسيره للتائية والهندوسية والبوذية لقى معارضـة من العلمـاء الذين تخصصـوا فى دراستها وكذلك نقده لكثير من المذاهب الفلسفية لم يسلم من النقد والتجريح ، كما اخذ عليـه اقلاله من شأن دور العلم فى التجديد الأخلاقى للحضارة ، ومهما يكن النقد الذى وجه الى آراء اشفايتزر فانه لا يمكن انكار قيمة آرائه والمثل الذى قدمه للانسـانية بحياته واعماله كما أنه بتأكيده لأهمية الجانب الأخلاقى فى الحضارة قد وضع اصبعه على مطلب من أهم مطالب الانسانية فى العصر الحاضر وهو العناية بهذا الجانب بوجه خاص ، ولست اشك فى ان هذا الكتاب من خير الكتب التى زودت بها المكتبـة العربية فى السنوات الأخيرة وقد نقل الى اللغة العربية نقلا جمع بين الدقة والأمانة ويستحق التقدير لما بذل فيـه من جهد وما سيجده القارىء فى الاطلاع عليه من متعة وفائدة .

على أدهم

هذه قوميتنا



تأليف: د. عبدالرحمن البزاز

الناشر: دار القلم ٤٤٧ صفحة ١٧ × ٢٤ سم الثمن ٦٠ قرشا

فى عالم اخذ يتحرر من وقر القومية وعنصريتها الجامحة ليعلى من شأن الأخاء العالمى والروح الانسانى العام رحنا ننادى بالقومية العربية شعارا لوحدة العرب والأخاء العربى ووحدة العروبة فهل أخطأنا التعبير أو ضل بنا القصد ، أم أننا نعنى طرازا آخر من القومية التى تعلى من شأن الانسان وكرامة الأخاء العالمى ، وان سقنا له هذا المدلول الذى حمل اوربا على النزعة العنصرية الحادة ، والتعصب لما دعاه المستعمر الأوربى ـ رسالة الرجل الأبيض المقدسة ـ وطوح بها على متن العباب الى بلاد آمنة حرة لتجردها من حريتها وتفرض عليها سلطانها وتحكمها بالحديد والنار ، ثم غاص بها فى حمأة التناحر الاستعمارى ليجرها فى مدى جيل واحد من الزمن الى حربين عالميتين جلبتا على الانسانية ـ كما يقول ميثاق الأمم المتحدة ـ من التعاسة ما يعجز عنه الوصف .

كانت تلك هى القومية التى عرفتها أوربا ، يوم تحررت من ربقة الامبراطورية وسلطة الكنيسة واقامت الدولة القومية الحديثة على أنقاض اقطاع العصر الوسيط ، ولم يعرف العالم ذلك المدلول من قبل وان شهد التاريخ قيام دولة قديمة فى مصر وبلاد الرافدين لها كل سمات الدولة القومية . افنحن نحتذى هذا المدلول معناه الضيق الذى احتذته أوربا من قبل ، وهل نخوض معركة الوحدة العربية كما خاضتها

المانيا وايطاليا فى القرن التاسع عشر ومن قبلهما فرنسا وانجلترا وبلجيكا واسبانيا .

ان معركة الوحدة العربية تشترط السلم واجماع الارادة العربية عليها ومعنى ذلك أنها تقوم على الاقتناع واول مظاهر هذا الاقتناع وحدة الهدف .

والقومية العربية لا تقوم على العنصرية القبلية أو الشعوبية التى قامت عليها القوميات الأوربية ، ولا تعتنق الفكرة الامبراطورية التى تقوم على التوسع الاستعمارى ونهب المستعمرات لخير الدولة المتسلطة ، ولا تقيم وجودها وكيانها على التسلح والعدوان والمحافظة على التوازن الدولى حتى لا تطغى دولة على دولة أو تفوقها فى ميدان القتال والتسلط الاستعمارى واحتكار الأسواق التجارية والخامات الصناعية ، وانما تقوم القومية العربية على وحدة الأمة لا وحدة الشعب ، الأمة التى خاضت تاريخا مشتركا وتتكلم لغة واحدة وتربطها آمال مشتركة لمستقبل واحد ، وتتبنى دعوة السلام والتعاون الدولى من أجل الرخاء و « مقاومة الاستعمار والسيطرة بكل الطاقات والوسائل وكشفه فى جميع اقنعته ، ومحاربته فى كل أوكاره » ، وتدعو الى الاخاء العالمى ونبذ التفرقة العنصرية ، وهى قومية لها جذورها التاريخية البعيدة ، عاشت فى الاطار الاسلامى تعلى من أخوة الاسلام والسلام الذى نشرته الدولة الاسلامية فوق ربوعها وشادت حضارة تركت اشعاعة زاهية من وقدتها التى انارت العصور الوسطى ، ومن فكرها المبدع الخلاق الذى دفع بأشباه الهمج من اهل أوربا وهم يستقبلون مولد نهضتهم لأن يبحثوا تحت اقدام العرب طلبا للعلم والمعرفة ، واورثت الحضارة الأوربية خير ما فيها من اعلاء الروح وتمجيد العقل ، ويوم ضلتهما عادت تبحث عنهما فى روح الشرق وايمانه العظيم .

وكان العرب اصدق منا تعبيرا حين اطلقوا على هذا النوع من القومية الأوربية الضيقة لفظ « الشعوبية » نسبة الى « الشعوب » ونسبتها الى الجمع لانها صارت علما كالانصار وهو المعنى الدقيق لكلمة Nations فى الانجليزية والفرنسية اما القومية فنسبة الى القوم وهم الجماعة الانسانية المتشابهة التى ينتمى بعضها الى بعض . والقوم لغة الجماعة من الرجال ليس فيهم امرأة ، وقوم الرجل أقرباؤه الذين يجتمعون معه فى جد واحد ، وقد يقيم الرجل بين الأجانب فيسميهم قومه مجازا للمجاورة ، وفى التنزيل « ياقوم اتبعوا المرسلين » وفيه أيضا ما يعنى الرجل والمرأة من معنى القوم ففى قوله تعالى « وقال الذى آمن ياقوم اتبعونى اهدكم سبيل الرشاد » « وكذب به قومك » ، والواضح من الآيتين ان اللفظ يشمل الرجال والنساء على حد سواء ، وهو ما ذهب اليه مؤلف « هذه قوميتنا » .

اما الشعب فهو ما انقسمت فيه قبائل العرب والجمع شعوب ويقال الشعب الحى العظيم ويقال شعبت القوم شعبا من باب نفع جمعتهم وفرقتهم فهو من الفاظ الاضداد ، والشعوبية بالضم فرقة تفضل العجم على العرب ، فالشعب أقل من القوم ، وعلى هذا تكون القومية أفصح فى الدلالة على الأمة العربية وتكون الشعوبية أفصح فى الدلالة على الدول الأوروبية من القومية فالفرنسيون شعب ينتمى الى أمة اللاتين والانجليز شعب ينتمى الى الأقوام الجرمانية ولا نقول الأمة الجرمانية لأن هذه الأقوام لم تكن أمة موحدة كما كان اللاتين وكما كان العرب .

وغام تعريف القومية فى أذهان الأوربيين ، فالموسوعة البريطانية تعرفها بأنها « التعلق بأرض الوطن وتقاليد الأجداد والسلطات الاقليمية القائمة ، وهى عواطف شائعة منذ القدم ولكنها لم تصبح عاطفة مسلما بها ذات أثر فى الحياة الخاصة والعامة للأفراد الا فى القرن الثامن عشر » .

وقد اخذ الأستاذ البزاز بهذا التعريف أو سلم به على الأقل ، مع ما فيه من نقص وما يعتوره من اضطراب ، فان**القومية « كما نرى » هى الاحساس بالانتماء الى وطن معين والى أمة بعينها ، وادراك هذا الاحساس هو ما نسميه بالشعور القومى .**

والقومية غير الوطنية ، وان كنا نخلط

بينهما خلطا شديدا ، يقع فيه حتى اساتذة الجامعات المتخصصين ، مما أشار اليه المؤلف فى صدر كتابه ونشير الى مثله فى مقالنا هذا .

ويرى الأستاذ البزاز أن **الوطنية « هى ارتباط الفرد بقطعة أرض تعرف باسم الوطن ، وهى قد تعنى أحيانا الاهتمام بشئون ذلك الوطن ، والتعلق به بالعواطف والأحاسيس باعتباره التربة التى تضم رفاة الأجداد والآباء . ان الكلمة الأجنبية للوطنية** Patriotism **تعنى هذا المعنى بجلاء ، بحيث يصح أن نقول بأن الوطنية هى حب أرض الآباء على حين أن القومية تعنى أولا وقبل كل شىء ارتباط الفرد بجماعة من الناس تعرف باسم الأمة ، والحرص على مصالح هذه الجماعة ، والعمل من أجلها ».**

ونتفق مع الأستاذ البزاز فيما يقوله ، فالوطنية هى حب الوطن ، وان كنا نختلف معه حين يجرد القومية من الوطن ولا يعتبر الأرض التى تقوم عليها الأمة وتملكها مقوما للقومية ، ويضرب لذلك مثلا « بالصهاينة قبل أن يقيموا فعلا وطنهم فى اسرائيل » كما يقول ، والصحيح ان القومية لا تنشأ الا فى رحاب الوطن فهو الذى يربط الجماعة الانسانية بعضها ببعض وفى رحابه تنشأ التقاليد والعادات والمأثورات ، وفى ظله تنصهر تلك التقاليد والعادات والمأثورات لتتشابه وتلبس اطارها المميز . ولا يمكن لأمة ان تتشابه اعرافها وتقاليدها بعيدا عن تراب الوطن ، فالعربى والانجليزى والأمريكى قد يعيش لجيل او جيلين واحساسه بالانتماء الى امة او وطن بعيد قائم باق ، ولكن سرعان ما تتمثل البيئة الجديدة أولاده وأحفاده ، وحتى هو نفسه اذا اكتسب جنسية الدولة التى يقيم فيها ، أصبح التزامه القومى نحوها التزاما يفرضه القانون وتفرضه المصلحة الجديدة ، وكل ما يبقى فى نفسه هو اعزاز وحب لوطنه القديم أقرب الى الوطنية منه الى القومية ، وهو اعزاز لا يتعدى نطاق العاطفة الى العمل القومى فالأمريكيون الألمان قد حاربوا فى صف أمريكا بنى عشيرتهم الأقدمين .

فالقومية فضلا عن انها احساس بالانتماء



تقويه المصلحة المشتركة وتراث الماضي البعيد ، تنطوى على التزامات يفرضها قيام الدولة القومية على رعاياها ، والمعروف ان القومية فى فورتها ويقظتها تبغى تحقيق الكيان القومى الممثل فى قيام الدولة القومية .

لهذا اخطأ الأستاذ البزاز فى مجال التطبيق بين المذهب والعقيدة وبين القومية ، **فالصهيونية عقيدة أقرب الى المذاهب الدينية ادعت القومية مذهبا سياسيا لجماعة لا يربطها ببعضها غير الدين ولا يجمعها غير تعاليم التوراة وفكرة العودة الى أرض لم تكن ملكا لهم فى يوم من الأيام .. وان أقام العبرانيون على بعض أجزائها ولفترات قصيرة من التاريخ مجتمعا منظما لم يرق بعد الى كيان الدولة القومية الذى حققته مصر مثلا فى تاريخها القديم** . كما اخطأ ايضا حين ذكر ان « **القومية تنمى أحاسيس لولاءات متعددة أو متنافرة احيانا ، فالقومى العربى فى العراق أو المغرب يحب العراق أو المغرب باعتبار أن الوطن العربى وطن كبير واحد ، واليهودى الصهيونى المقيم فى الولايات المتحدة الأمريكية قد لا يحب الولايات المتحدة الأمريكية (وطنه الرسمى) وقد يشعر أن ولاءه الأول يجب أن يكون لاسرائيل وطنه القومى الذى يتعلق فيه بروحه وأحاسيسه ومشاعره** » . فاحساس العربى فى العراق أو المغرب ليس احساسا قوميا وما هو الا من قبيل التعلق بالأسرة أو القرية أو المدينة التى ينشأ فيها الانسان أكثر من تعلقه بأسرة مجاورة أو قرية قريبة ، وهو احساس يصور ساكن البصرة كما يصور ساكن قنا والشرقية ، وهو احساس بالحب فهو أقرب الى الوطنية منه الى القومية ، ودرجات الحب متفاوتة **أما الاحساس القومى فهو الاحساس بالانتماء الى الوطن الأم والى القوم الأكبر ، أما المشاعر المحلية الضيقة فهى مشاعر أسرية أو قبلية أو اجتماعية كمشاعر سكان الريف بالنسبة لبعضهم أو سكان المدن باعتبار أن حياتهم تختلف الى حد ما عن حياة سكان الريف، ولا يمكن لهذا النوع من المشاعر أن يعد احساسا قوميا أو يؤثر فى القومية بشكل ما** ، فالشعور القومى لا يتجزأ وهذه الأحاسيس المحلية غذاؤه وقوته . **أما الصهيونية فطراز شاذ لا يمكن أن يكون قاعدة لمدلول قومى ، وهو شعور عنصرى أكثر منه قومى ، ودينى أكثر منه تاريخى ، وليست الصهيونية قومية بل هى مذهب وعقيدة ، كعقيدة جماعة « الكوكلوكس كلان » فى محاربة الزنجى .**

ووقع الأستاذ البزاز فى الخطأ الذى انكره على غيره حين ظن اختلافا بين القومية والوطنية عند العرب ورد ذلك الى ان الوطن العربى لم يتحرر بعد وان بعض الأقطار العربية حريصة « اليوم على أوطانها الخاصة » وتعمل على « تأبيد حدودها القائمة فى الوقت الحاضر » ، والواقع ان حب العراقى للعراق والمصرى لمصر كحب البغدادى لبغداد والقاهرى للقاهرة ، والاب لأسرته شعور آخر لا صلة له بالقومية والوطنية ، اما حرص الأقطار العربية على كيانها القائم فليس مرده الارادة الشعبية ، أو تفوق الوطنية على القومية وانما مرده حرص الحكام على امتيازاتهم وما يملكون ، فاذا ضربنا مثلا لاتساق القومية والوطنية « بالنسبة لكثير من الشعوب الأوروبية اليوم » كفرنسا وايطاليا والسويد وتعليل ذلك بأنها « أصبحت أمة واحدة منذ مدة طويلة » وانها قد حققت وحدتها فعلا . فان ذلك المثل لا ينطبق على الأمة العربية التى أصبحت أمة منذ عهد أبعد بكثير من العهد الذى ظهرت فيه «الأمة الفرنسية أو الأمة السويدية» والفرنسيون ليسوا أمة بل هم شعب وكذلك أهل السويد وأهل ايطاليا وغيرهم والشعب الفرنسى جزء من الامة اللاتينية ميزته لغة خاصة كانت هى اللغة الدارجة أو الخاصة لأبناء الغال وهكذا كانت الشعوب الأوربية الأخرى ، **أما الأمة العربية فقد صان القرآن لغتها وظلت تلك اللغة بتراثها الثقافى الباهر الرباط الأكبر للقومية العربية** ، ولو حدث ومرت الأمة العربية فى مثل ما مرت فيه امة اللاتين أو الجرمان أو القوط من سيادة اللهجات المحلية وتطورها الى لغات متميزة ، لفقدت الأمة العربية رباطها الأكبر ولتكونت فى كل قطر عربى قومية متميزة خاصة بها وكانت قومية أصلها الشعب لا القوم ولأصبحت قريبة الى طراز القوميات الأوربية

التى نشأت فى القرن الثامن عشر ، وهو ما يجب أن نعيه تماما عند دراستنا للقومية العربية فانها طراز جد مختلف عن القوميات الأوربية أصلا ومنحى ومثلا واتجاهات .

ولا يقلل هذا من قيمة الكتاب فانه بحث أقول صادقا انه أوفى بحث وادقه صدر فى هذا الموضوع ينم عن عمق فى التفكير وسعة اطلاع ودقة ادراك للمعنى والمصطلح فى اللغة والتعبير. وقد حملته دقته على التعرض لأخطاء وقع فيها أساتذة متخصصون حين تناولوا تلك المعانى وغام عليهم المعنى عند التعبير اللفظى او قصر ادراكهم عن دقة الفهم الذى يراه ، ففى كتاب « الايدلوجية العربية والمجتمع العربى » للدكتور عبد العزيز عزت ، أخذ على المؤلف عجمة العنوان والفصل بين مصر والمجتمع العربى والقومية العربية والاستعلاء الأقليمى بوصفه مصر الكريمة احيانا والعزيزة احيانا أخرى دون المجتمع العربى الذى يتركه « عائما دون أية صفة من الصفات » وقوله « مصر فوق الجميع » كما يأخذ عليه الخلط « بين مصطلحى شعب وأمة » والزعم بأن « مصر لم تكن عربية وانما تبنت القومية العربية سياسة بعد وحدتها مع سورية » فكأن القومية العربية فكرة طارئة وليست واقعا أصيلا .

ولعل أصل الخطأ ما وقع فيه « المعجم الوسيط » الذى أصدره « مجمع اللغة العربية » عام ١٩٦٠ ، ووضعه أربعة من فضلاء أعضائه ، واشرف على طبعه أحد الأساتذة المختصين باللغة العربية تحت مادة (أمة) ما يأتى انقله بالحرف الواحد : (**الأمة الوالدة ــ جماعة من الناس أكثرهم من أصل واحد ، وتجمعهم صفات موروثة ، ومصالح وأمانى واحدة ، أو يجمعهم أمر واحد من دين أو مكان أو زمان**) وبعد هذا التعريف العام الذى هو ليس بجامع ولا مانع جاءت الأمثلة : (يقال الأمة المصرية والأمة العربية) . ويرى الأستاذ البزاز ــ ولا نخالنا الا مؤيديه ــ أن هذا التعريف فضلا عن مجافاته للصواب العلمى بالاستناد « **الى نظرية الجنس أو الرس والتى لم تعد مقبولة فى تحديد ماهية** الأمة » يناقض نفسه ، ويتساءل « **أليس هناك جامع يجمع بين المصريين والعراقيين بالقياس الذى أقره التعريف ، بحيث يصبح المصريون والعراقيون بالضرورة وحسب منطق الأشياء أبناء أمة واحدة ، ويجعل القول بوجود الأمة المصرية والأمة العراقية مناقضا للتعريف المسطور ذاته** » . ومصدر الخطأ كما يرى الاستاذ البزاز ــ ونتفق معه فيه ــ هو الخلط بين لفظى أمة وشعب . .

ويضرب مثلا آخر لمثل تلك الأخطاء بما وقع فيه الدكتور ابراهيم أنيس فى محاضراته عن مستقبل اللغة العربية المشتركة بمعهد الدراسات العربية العالية ، فيأخذ عليه استعماله « عشرات المرات مثل هذا القول : الأمم العربية والأمم الشقيقة والأمم العربية الشقيقة ، فالعرب فى رايه امم لا امة واحدة » . ولا يقبل الأستاذ البزاز التعلل بأن لفظ امم جائز لغويا ، ويرى أن المعنى الاصطلاحى للأمة هو ما يجب أن تأخذ به دون المعنى اللغوى ، ويقول ان الدكتور ابراهيم انيس قد وقع فى الخطأ الذى وقع فيه واضعو « المجمع الوسيط » ، فى الخلط بين مصطلحى شعب وامة . وينقده فى الترويج ولو بطريق خفى لعامية وادى النيل ويقول أين هى تلك اللغة المشتركة فى وادى النيل غير العربية الفصحى واللغة الدارجة فيها لهجات لا تتفاوت بين مصر والسودان فحسب بل تتفاوت بين مكان وآخر من الوجه البحرى الى الصعيد ومن القرية الى المدينة ، وينقد فيه ايضا موقفه السلبى حين « **جاز له أن ينهى بحثه الخطير بهذه السلبية المشينة وهذا القدر من عدم الاهتمام بحيث يترك القارىء وكأنه فى الحقيقة أمام فرضية سليمة ونبوءة يمكن أن تتحقق فى المستقبل على الرغم مما فى تلك النبوءة من تهافت**

ظاهر ، ومعارضة لأوليات ما يفرضه علينا كوننا أمة عربية واحدة » .

ويمضى الأستاذ البزاز فى تقصى تلك الأخطاء فيأخذ على الأستاذ محمد بكير خليل فى تناوله للقومية العربية خلال محاضراته التى ألقاها على طلبة معهد الدراسات العربية العالية ، الخلط أيضا بين مصطلحى أمة وشعب ، كما يأخذ عليه الاضطراب والتناقض الظاهر رغم جزالة أسلوبه وسعة علمه ، ويقول انه أخطأ فى ترجمة كلمة Nationality بالقومية « بينما الترجمة السليمة هى (تابعية) أو (جنسية) » ، وانه « يثير الشكوك حول طبيعة القومية ويقول انها معقدة مركبة قلما تستطيع تعليلها أو تفسيرها مقاييس العلم » كما يقول : « ان الأمة والقومية Nation & Nationality من الكلمات الغامضة المدلول والتى تنطوى على شىء كثير من التعقيد بحيث يصبح من العسير تعليلها أو تحديدها ، ومن اليسير الخلط بينها وبين العناصر التى لا تمت اليها بصلة » .

ويرى الأستاذ البزاز ان المحاضر قد خلط بين القومية العربية والقوميات الأوربية بما لابسها من التعصب والاستعلاء ونظرية الجنس مما أشرنا اليه فى صدد هذا المقال ، والواقع أن القومية العربية طراز وحده لا يدركه الا من أوغل فى تاريخ الأمة العربية ونفذ الى شخصيتها ومقومات وجودها منذ البداية غير متأثر بمدلولها الأوربى أو بتياراتها التى نجمت عنها .

ويمضى الأستاذ البزاز فى كتابه فيضع لنفسه منهجا للبحث يقوم على تقسيم الكتاب الى أبواب يبدؤها بما دعاه تحرير القومية العربية من بعض القيود والأخطاء الشائعة ثم دراسة « النظريات المختلفة حول قوام القومية » وكان أحرى به ان يقول : النظرية العامة للقومية ، فهذا أقرب الى المنهج العلمى فى البحث من العنوان الذى ارتآه لهذا الباب . ويعالج فى الباب الثالث الخصائص الأساسية للقومية العربية ، ويؤكد فيها كما يقول « صفات (الكلية) ، والديمقراطية ، والاشتراكية ، والتقدمية التى هى — فيما أرى — أهم تلك الصفات » . والباب الرابع عن أهداف القومية العربية وأقوم السبل لتحقيقها والباب الخامس فى تطور القومية العربية فى مختلف العصور حتى وقتنا الراهن وابراز دور الجامعة العربية — ما انجزته وما لم تنجزه — فى هذا الميدان ، ويعرض فى هذا الباب لتطور القومية العربية فى مصر حتى قيام الجمهورية العربية المتحدة ، والباب السادس عن مستقبل القومية العربية وعوامل القوة فيها .

ويجرى الكتاب على أسلوب البحث العلمى فى القياس والاستدلال والاستناد الى المصادر العديدة والنظريات العلمية المختلفة والاستقراء العميق لوقائع التاريخ ، ولعله فى كل ما قرأت من الكتب العربية التى عرضت لهذا الموضوع أول من فرق بين القومية العربية والقوميات الأوربية ، فحررها مما لصق بالقوميات الأوربية من سيئات . ونبه الباحثين الى خطأ الخلط بين الاثنين . وان جاوزه التوفيق فى بعض ما جاء به حين شبه التبعية العثمانية بالاستعمار الفرنسى أو الانجليزى لبعض بلاد العرب متجاهلا أن التبعية العثمانية كانت تقوم على الولاء العربى والاسلامى لرباط الخلافة الذى جمع العرب تحت لواء واحد من الوحدة الدائمة وجب كل تفرقة وتمايز بين المسلمين ولعله لا ينكر أن الأمة العربية فى اطارها الكبير قد تكونت فى ظلال الاسلام وتحت لواء الخلافة الاسلامية العربية فى المدينة والكوفة ودمشق وبغداد ، وأن

العثمانيين قد رفعوا لواء الاسلام فوق بقاع جديدة وانهم حتى فى ضعفهم وقفوا حاجزا امام الامتداد الاستعمارى الى قلب الوطن العربى ، حتى ان الاحتلال البريطانى فى مصر ظل يعترف بالسيادة العثمانية على مصر الى قيام الحرب العالمية الأولى .

واسرف المؤلف فى شرح ما سماه « قوام القومية واركانها » وتناول باسهاب وتفصيل يتسمان بالطابع العلمى مقومات القومية مؤيدا بعضها ومعارضا البعض الآخر دون أن يصل الى الأساس الحقيقى لنشأة القومية او وجودها الا من خلال التعرض للمعوقات التى تناولها وهى : وحدة الأصل ، ووحدة اللغة ، ووحدة الأرض ، والوحدة الاقتصادية ، والوحدة الدينية ، والوحدة الثقافية ، والوحدة التاريخية . وانكر أن تكون الوحدة الجغرافية أساسا أو سببا فى نشأة القومية دون أن يفرق بين ضرورة وجود وطن للأمة تنشأ فى رحابه وبين نظرية التكامل الجغرافى والوحدة الجغرافية ، فالواقع أن التكامل الجغرافى والوحدة الجغرافية ليسا شرطا لنشأة القومية أو قيامها ولكن من الضرورى للأمة ان يكون لها وطن تنشأ فى رحابه وتنصهر تقاليدها فى بوتقته وليست الصهيونية قياسا على نشأة القومية دون وطن ، فقد ربطت التوراة بين اليهود برباط فكرى قوى عوضهم عن فقد الوطن ، ولا نستطيع ان نقول ان أمة ما يمكن ان تنشأ فى فراغ وتتكون دون وطن ، فالأمة توجد وتقوم فى رباط من وحدة الوطن الذى يربط افرادها وهذا الوطن هو البقعة التى يعيش عليها أفراد متشابهون وحين يربط التشابه بينهم يرون أن حدود وطنهم تمتد مع انتشار هذا التشابه الى أقصى حد يصل اليه من الأرض وينتهى بقيام قوم آخرين يجاورونهم وتتشابه — هم الآخرون — أعرافهم وتقاليدهم فى حدود الرقعة التى يعيشون عليها ، وليس شرطا أن يكون هذا الوطن متشابها فى المناخ او فى طبيعة الأرض .

ويرى الأستاذ البزاز أن قوام القومية هو اللغة والثقافة والتاريخ المشترك وكان أحرى به أن يجمل ذلك فى دعامتين هما الأساس فى كل قومية وهما : وحدة الثقافة ووحدة التاريخ فاللغة هى أداة التعبير عن الثقافة لذلك كانت الثقافة واللغة شيئا واحدا لا ينفصل وكان أحرى به أن يختم هذا الباب بتحديد هذين المقومين بدلا من أن يتركهما عائمين وسط المقومات التى ناقشها .

وتحدث فى الأبواب الباقية من الكتاب عن القومية العربية فى حاضرها من حيث الخصائص والأهداف والوسائل التى تتبع للوصول بها الى أهدافها هذه ، فوصفها بالكلية والديمقراطية والاشتراكية والتقدمية **ويبدو انه جاوز الخصائص الاجتماعية والسياسية الى وصفها بالكلية كناية عن أنها عامة لكل العرب على اختلاف طوائفهم وطبقاتهم ، ولعله قد تأثر فى ذلك بما أخذه على الشيوعية من أنها حركة الكادحين فى كل بقاع العالم ليتحدوا فى سبيل غاية تحددها لهم وترسم خطواتها أمامهم ، وهذا قياس مع الفارق فالقومية احساس والشيوعية مذهب وعقيدة ، والقومية وجود قائم حى والشيوعية دعوة وفلسفة ، وليس ما يلزم أن نجعل الكلية من خصائص القومية العربية أو أية قومية أخرى فالقومية تتكون عن طريق الامتصاص شأنها فى ذلك شأن العادات والتقاليد بل انها لتعد جزءا من تراث الأمة الاجتماعى والثقافى ، ولكن الشيوعية لا تقوم الا بالدعوة والتعليم وليست لها جذور عاطفية أو حسية**

في وجدان الفرد كالقومية التى تقبع فى وجدانه وحنايا شعوره .

كما تناول تطور القومية العربية وظهور الوعى القومى فى مصر حتى ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ الى قيام الوحدة بين مصر وسورية . ويختم الكتاب بالحديث عن مستقبل القومية العربية ، فيذكر المراحل التى مرت بها واولها مرحلة المد الثورى الذى « أخذ شكله الواضح الجلى فى السنوات الأخيرة » (عام ١٩٥٥) ، وهو العام الذى تحررت مصر فيه « من سيطرة الغرب على تسليح المنطقة » ، ثم تأميم القناة والانتصار على العدوان الثلاثى فى خريف عام ١٩٥٦ ، ثم مرحلة الجزر الثورى بانحراف ثورة تموز عام ١٩٥٨ فى العراق عن اهدافها العربية وتحولها الى مجرد انقلاب عسكرى ، وانفصال سورية عن مصر ، وأخيرا مرحلة أخرى للمد الثورى تمثل فى نجاح الثورة الجزائرية واستقلال الجزائر وسيرها فى الركب العربى المتحرر .

ويختم الكتاب بعوامل القوة فى القومية العربية وهى : الوعى القومى المتزايد والموارد الطبيعية الهائلة والموقع الجغرافى والبيئة الطبيعية المتميزة ، وزعامة العرب الروحية لملايين من المسلمين فى العالم ، وسياسة الحياد الايجابى ونجاح التجربة الاشتراكية وما تتسم به القومية العربية من غيرية وحب للناس وتعاون للخير والسلام العام .

والكتاب موسوعة علمية حافلة بالآراء والمناقشات التى يسوقها المؤلف ويدلى فيها بفكرته مدعمة بالدليل العلمى والمنطق الواقعى لحقائق الأشياء ولعله خير ما كتب فى هذا الميدان .

د . حسين فوزى النجار

● ● ●

سطور من ديوان

« أيها العمال يا ذخر الوطن
أمكم نادت فلبوها كراما

واسبقوا فى سعيكم سعى الزمن
وادفعوها بيد العزم أماما
وثبة الجيل الجديد للحياة غاية النيل العريق
فابعثوا الماضى المجيد من ثراه انه نور الطريق
أتقنوا الصنعة فالمجد دعانا
فبها نسمو على الأيام شانا
وبها نعلو على الشمس مكانا

فهبوا للنيل روحا وجنانا
أنتم للشعب ذخر ودعام
فانهضوا اليوم وسيروا للامام

ربيع



كسبكم فى كريم السعى للمجد حلال
دأبكم فى حمى النيل جهاد ونضال
أيها العمال يا ذخر الوطن
أمكم نادت فلبوها كراما
واسبقوا فى سعيكم سعى الزمن
وادفعوها بيد العزم أماما »

تأليف : بول . م سويزى
ترجمة : الدكتور عمر مكاوى
مراجعة : الدكتور أحمد حسن أحمد

الناشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة
٣١١ ص ١٧×٢٤ الثمن ١٦ قرشا

الاشتراكية

فى المرحلة التى تمر بها بلادنا وهى تسير على طريق الاشتراكية نجد الحاجة ماسة الى مزيد من الدراسات العلمية العميقة فى هذا الموضوع : موضوع « الاشتراكية » . والكتاب الذى نعرض له اليوم يعد بغير شبهة احد هذه الدراسات العميقة التى دأبت الدار المصرية للتأليف والترجمة على تقديمها للقارىء العربى .

وبول سويزى ــ مؤلف الكتاب ــ ماركسى امريكى وقد ظل عضوا فى هيئة التدريس فى قسم الدراسات الاقتصادية بجامعة هارفارد الى عام ١٩٤٢ عندما ترك الحياة الأكاديمية ودخل الجيش وبعد الحرب لم يعد سويزى الى هارفارد واتجه مع زميل له الى تأسيس « المجلة الشهرية » Monthly Review « التى تعتبر منبر الفكر الماركسى فى الولايات المتحدة الأمريكية .

والى جوار المقالات العديدة العميقة التى ينشرها سويزى فى مجلته فان له دراسات اقتصادية متعددة تدور جملتها حول نقد الاقتصاد الراسمالى وبيان حتمية انهياره وحول الاشتراكية بطبيعة الحال .

وكتاب سويزى « الاشتراكية » هو الكتاب الخامس فى سلسلة كتب اقتصادية يصدرها سايمورهاريس بمساعدة مجموعة من أساتذة الاقتصاد فى جامعة هارفارد وتنشرها ماك جروهل Mc Grow-Hill وقد نشر كتاب سويزى فى يناير ١٩٤٩ واعيد طبعه بغير تغيير فى السنة نفسها .

والكتاب يضم ابوابا ثلاثة متصلة بعضها ببعض بحيث يعتبر الكتاب كله وحدة متكاملة واضحة وناضجة فى آن واحد .

وفى الباب الأول ــ أو الجزء الأول كما آثر المترجم أن يطلق عليه فى الفهرس ــ يتكلم سويزى عن التطبيقات الاشتراكية المختلفة . اى أنه فى هذا الباب يقدم لنا نوعا من الدراسة التطبيقية ويحرص سويزى قبل أن يدخل فى دراسة تلك التطبيقات المختلفة على أن يقدم لنا المعايير الأساسية التى تفرق بين النظام الرأسمالى والنظام الاشتراكى وأول هذه المعايير واكثرها حسما هو المعيار المتعلق بملكية وسائل الانتاج فهى فى النظام الراسمالى الأصل فيها أن تكون فردية على حين أن هذه الملكية لوسائل الانتاج فى النظام الاشتراكى الأصل فيها أن تكون ملكية جماعية عامة . هذا وان اتفقت الراسمالية والاشتراكية على اقرار الحق فى ملكية أدوات الاستهلاك . ويحرص سويزى بعد ذلك فى هذه المقدمة على توضيح الشيوعية ــ لدى الماركسيين ــ هى شكل المجتمع الذى يلى الشكل

الاشتراكى وأنها هى الشكل الذى سيبلغه الجنس البشرى بعد أن يتخلص نهائيا من رواسب الطبقات والصراع الطبقى .

وبعد هذه المقدمة الموجزة التى خصصها سويزى لبحث بعض المصطلحات وتحديد مضامينها التى آفرد لها الفصل الأول من الباب الأول ينتقل بعد ذلك الى التطبيقات الاشتراكية فيخصص الفصل الثانى للاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى والفصل الثالث للاشتراكية فى بريطانيا والفصل الرابع للاشتراكية فى أوربا الشرقية .

وغنى عن البيان ان سويزى وهو يتابع التطبيقات الاشتراكية المختلفة فى تلك الدول وقف عند نهاية عام ١٩٤٧ وأوائل عام ١٩٤٨ لان الكتاب كما قدمت ظهر فى أول عام ١٩٤٩ والواقع ان كتابا يتابع تطور الأحداث الى بضعة شهور قليلة سابقة على ظهوره ليمثل جهدا رائعا .

وفى الفصل الخاص بالاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى يبدأ سويزى بعرض الأحوال فى السنوات القليلة السابقة على الثورة الروسية عام ١٩١٧ ثم يستعرض سريعا السنوات بين ١٩١٧ — ١٩٢١ وهى التى يطلق عليها فترة حرب التحرير او الحرب الشيوعية الأهلية وكيف انتهت هذه السنوات الرهيبة الى ارهاق النظام الجديد ارهاقا عنيفا وكيف دفعت هذه الأوضاع الاقتصادية بلينين الى تطبيق سياسته الاقتصادية الجديدة التى يشار اليها عادة بلفظ (نيب N.E.p) (١) رمزا الى عبارة New Economic policy وكيف أن هذه السياسة فى جوهرها كانت نوعا من العدول عن التطبيق الحرفى للماركسية فى الالغاء الكامل للملكية الخاصة لوسائل الانتاج الى سياسة تكفل سيطرة الدولة وملكيتها للقمم الاقتصادية المسيطرة على وسائل الانتاج من بنوك ومؤسسات صناعية كبرى أما المؤسسات الصغرى فقد اعيدت لأصحابها بعد أن الغى تأميمها مما دعا سويزى الى القول — بحق — إن الاتحاد السوفييتى فى تلك الفترة كان يعيش فى نوع من النظام المختلط بين الاشتراكية والراسمالية وقد ادى هذا النظام المختلط الذى اهتدت اليه عبقرية لينين وفرضته على الجامدين نظريا الى النهوض من التخريب والارهاق الذى اعقب فترتى الحرب العالمية والأهلية .

ويمكن القول أن الاتحاد السوفييتى بدأ يدخل مرحلة الاشتراكية شبه الكاملة منذ عام ١٩٢٨ الى أن تحققت بالفعل الملكية الجماعية لجميع وسائل الانتاج .

ويتحدث سويزى بعد ذلك عن التقدم الهائل الذى حققه التخطيط الاشتراكى فى الاتحاد السوفييتى ويبين هذا التقدم فى جداول علمية توضح بالأرقام التطور الهائل فى ذلك الاقتصاد . وقد يغنى مثل واحد من امثلة كثيرة ففى مجال الطاقة الكهربائية بلغت نسبة التقدم من عام ١٩١٣ الى ١٩٣٨ حدا لا يكاد يصدق اذ ان النسبة بين هذين العامين فى هذا المجال هى ١٠٠ الى ٢٠٨٤ أى أنه فى ربع قرن تضاعفت القوة الكهربائية المولدة اكثر من عشرين مرة كذلك فقد استطاع تخطيط الاقتصاد الاشتراكى فى الاتحاد السوفييتى أن يقضى على مشكلة البطالة قضاء كاملا وهى المشكلة التى مازالت تعد احد المشاكل المستعصية فى النظم الراسمالية .

وفى الفصل الخاص بالاشتراكية فى بريطانيا يتحدث سويزى عن حزب العمال البريطانى وبرامجه وما استطاع تحقيقه فى الفترات التى تولى الحكم فيها وينتهى سويزى من تحليله لهيكل الاقتصاد البريطانى الى أنه « .. قد يكون من أسلم الطرق أن نقول ان بريطانيا مازالت دولة رأسمالية . وهذا القول فى الواقع ماهو الا تعبير آخر عن القول بأنه اذا لم تدعم الخطوة الاشتراكية الأولى بخطوات اخرى فى الوقت المناسب فان فى وسع الراسمالية البريطانية ان تبتلعها وتهضمها بدون صعوبة كبيرة » .

ويتساءل سويزى فى نهاية هذا الفصل عن مستقبل الاشتراكية فى بريطانيا — وقد كانت صناعة الحديد والصلب التى ركز اهمية كبيرة على تأميمها لم تؤمم بعد اذ انها اممت فى فبراير

---

(١) ننبه الى أنه فى ص ٢٨ من الترجمة العربية كتبت F بدلا من E .

١٩٥١ — ويجيب على تساؤله بعد تحليله لاتجاهات حزب العمال وأجنحته المختلفة الى ان خطة السير نحو الاشتراكية قد توقفت بالفعل ، ويربط سويزى استنتاجه هذا بمسألة أساسية هى ارتباط بريطانيا بالولايات المتحدة واعتمادها اقتصاديا على ما تقدمه لها من معونات مؤثرة .

وفى الفصل الاخير من الباب الاول يتحدث المؤلف عن الاشتراكية فى اوربا الشرقية . وبعد تحليله لظروف هذه البلدان قبيل الحرب العالمية الثانية وبعدها ينتهى الى ان الخصائص الأساسية لاقتصاديات هذه البلاد بعد الحرب العالمية الثانية يمكن ان تجمل فى نقاط ثلاث :

١ — تحطيم سلطة طبقة كبار الملاك الزراعيين وتوزيع الأرض على الفلاحين .

٢ — تأميم المؤسسات الصناعية الكبرى كذلك البنوك ووسائل المواصلات .

٣ — الأخذ بطريق التخطيط كمبدأ أساسى للتنظيم الاقتصادى .

ولما كانت بولندا هى اكبر بلاد اوربا الشرقية مساحة وسكانا فقد أولى سويزى تجربتها الاشتراكية بعض العناية واذا قدرنا ان لجوء بولندا الى نظام خاص بالتخطيط الاقتصادى لم يقر فعلا الا فى سبتمبر عام ١٩٤٦ لتبين لنا أن سويزى عندما وضع كتابه لم يكن فى وضع يسمح له ان يرى التجربة الا فى بدايتها . وفى نهاية هذا الفصل يتساءل المؤلف عن مستقبل الاشتراكية فى بولندا ورغم محاولة تحاشى التكهنات الناطقة — آنذاك — فانه من الواضح انه كان يعتقد انه لا يوجد ما يعوق تقدم بولندا فى طريق الاشتراكية . وقد أوضح الواقع صدق استنتاج المؤلف فى هذا الأمر .

واذا كان القسم الاول او الجزء الاول — كما يسميه المترجم — من الكتاب ينصرف تماما الى عرض التجارب والتطبيقات الاشتراكية التى كانت موجودة وقت كتابته فان القسم الثانى من الكتاب يتجه اساسا الى دراسة ما يمكن ان نسميه تاريخ الفكر الاشتراكى او تطور الفكر الاشتراكى .

ويرى سويزى أن البداية الحقيقية للفكر الاشتراكى ترجع الى فترة الحرب الأهلية الانجليزية عندما ثار النزاع بين شارل الأول والبرلمان وقامت الحرب بين قوات الجانبين (١٦٤٢ — ١٦٥٢) وينبه المؤلف الى أن موضوع الاشتراكية لم يكن احد قضايا الحرب المشار اليها اطلاقا وانما انحصرت هذه البدايات الاشتراكية فى جماعة أسسها چيرارد وينستانلى وسميت جماعة العزاقين The Riggers . وقد اتجه وينستانلى الى ان اساس الظلم الاجتماعى القائم هو الملكية الخاصة للارض . وقد أحسن المترجم بترجمة جماعة وينستانلى باسم « العزاقين » بدلا من «الحفارين »وهى الترجمة التى ترددت فى بعض الكتابات العربية قبل الآن اذ ان المعنى المقصود وراء الجماعة كان هو دعوة الفلاحين الى « عزق » الارض البور وفلاحتها .

وليس من الميسور فى هذا التقديم للكتاب أن نتتبع سويزى فى دراسته لتطور الاشتراكية أو تطور الفكر الاشتراكى مارين بتلك الجماعات التى اعقبت قيام الثورة الفرنسية او جماعة الميثاقيين فى بريطانيا كذلك بسان سيمون وفورييه وروبرت اوين وان كان سويزى لم يكلف نفسه عناء الوقوف عند هؤلاء الثلاثة رغم ما يستحقه أولهما — سان سيمون — وثالثهما — أوين — من بعض العناية عند دراسة تطور الفكر الاشتراكى .

وتحت عنوان «الاشتراكية تشب عن الطوق» تكلم سويزى عن الاشتراكية الماركسية وبدأ بعرض موجز لتاريخ كارل ماركس ثم تحدث عن البيان الشيوعى محللا بعض فقراته الهامة .

وبعد ذلك خصص فصلا لدراسة الفكر الماركسى فى الفلسفة والتاريخ والسياسة وفى اختصار شديد — وواضح مع ذلك — يعرض سويزى الأساس المادى الجدلى للماركسية ثم ينتقل بعد ذلك الى المادية التاريخية باعتبارها تطبيقا لمبادىء المادية الجدلية على تفسير تطور المجتمع مبينا ان القاعدة الأولى للمادية التاريخية هى أن اسلوب الناس فى الحياة هو الذى يحدد اسلوبهم فى التفكير وليس يعنى ذلك عند سويزى

أن النشاط الفكرى لا يلعب الا دورا سلبيا فى التطور التاريخى .

وعلى أى حال فان الأفكار الأساسية للمادية التاريخية تتمثل فى أن أساس كل مجتمع انما هو نظامه الاقتصادى وان لكل نظام اقتصادى تركيبه الطبقى المحدد الذى يقابله ولكل طبقة من طبقاته مصالحها الخاصة وهذه المصالح بالضرورة متعارضة متناقضة ومن ثم فان التاريخ فى حقيقته ليس الا تسجيلا لصراع الطبقات المتعارضة او المتناقضة .

وتحت عنوان جانبى « السياسة » يتحدث سويزى عن موقف الماركسية من السلطة السياسية والدولية — والدولة — من وجهة النظر الماركسية — منظمة عامة تملك حقا مشروعا فى استخدام القوة . وهذه القوة تستخدم اساسا لضمان بقاء النظام الاقتصادى والاجتماعى القائم لمصلحة الطبقة المسيطرة اقتصاديا .

ويحاول سويزى ان يوضح ان انتقال السلطة السياسية من طبقة مسيطرة الى طبقة أخرى انما يتم عن طريق الثورة ولكن لا ضرورة لاقتران الثورة بالعنف فالثورة قد تكون سلمية وقد قال ماركس ان امكانية التحول السلمى الى الاشتراكية فى انجلترا وفى الولايات المتحدة هى امكانية موجودة . ولكن لينين عندما كتب كتابه الدولة والثورة عام ١٩١٧ قرر أن احتمال الانتقال السلمى الى الاشتراكية اصبح احتمالا غير قائم ذلك على حين عاد ستالين بعد ذلك بسبع سنوات ليقول انه لا مانع من الانتقال السلمى الى الاشتراكية .

ويرى سويزى أن القول بامكانية التحول السلمى الى الاشتراكية لا يتعارض مع النظرية الماركسية التقليدية .

أما التحليل الاقتصادى الماركسى فان المؤلف يفرد له فصلا خاصا يبدؤه بالحديث عن طبيعة النظام الراسمالى وكيف أنه النظام الذى يقوم على الانتاج من اجل السوق بهدف تحقيق اقصى ربح . وفى هذا النظام يتم الانتاج فى مشروعات خاصة بواسطة عمال يتقاضون أجرا . والربح الذى يحصل عليه أصحاب المشروعات الخاصة — طبقة الراسماليين — هو فى الواقع الفارق بين ما يستحقه العمل من مكافأة وما يحصل عليه فعلا وهذا هو ما يسمى بفائض القيمة . والواقع أن تحليل سويزى لهذه المسألة التى هى فى غاية الأهمية بالنسبة للفكر الماركسى الاقتصادى هو تحليل واضح وبسيط يستطيع المثقف العادى أن يفهمه .

ثم ينتقل المؤلف بعد ذلك الى تناقضات الراسمالية الأخرى متحدثا عن الأزمات الدورية التى تجتاح النظام الراسمالى وصلتها بالتراكم الراسمالى وفوضى الانتاج ونقص الاستهلاك كذلك تحدث عما أسماه — ماركس — بقانون ميل معدل الربح نحو الهبوط فى النظام الراسمالى وما يؤدى اليه ذلك من انطفاء حيوية الراسمالية بالتدريج .

ويختم سويزى تحليله للاقتصاد الراسمالى بالحديث عن صلة الاستعمار بالراسمالية وكيف أدى الصراع الاستعمارى بين الدول الراسمالية الى الحربين العالميتين الأولى والثانية . وانه لا مجال للانسانية الآن لتخلص من كل هذه التناقضات ولتقضى على الحرب الا بأن تأخذ بالنظام الاشتراكى . والخيار الآن ليس بين الاشتراكية والراسمالية وانما الخيار هو بين الاشتراكية الآن أو الاشتراكية فيما بعد . ان الراسمالية — على حد التعبير الماركسى — قد أكملت مهمتها التاريخية فى بناء قوى الانسان الانتاجية وهى تتسكع الآن فقط لكى تدمر — عن طريق الحروب — المنجزات التى حققتها بيديها .

وفى الفصلين الأخيرين من هذا القسم الثانى يتكلم سويزى عن تطور الحركة الماركسية منذ الاعلان الشيوعى الى قيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ثم الى سنة ١٩٤٨ حيث كتب الكتاب منتقلا من الدولية الأولى الى فترة مابين الدولية الأولى والدولية الثانية ونشأة أحزاب وطنية اشتراكية فى تلك الفترة ثم قيام الدولية الثانية عام ١٨٨٩ واستمرار الدولية الثانية حتى نشوب الحرب العالمية الأولى فى أغسطس عام ١٩١٤ .

وبعد الحرب العالمية الأولى تأسست الدولية الثالثة « الكومنترن » وفى اشارة سريعة مقتضبة

يشير سويزى الى الموقف الحرج الذى وجدت الدولية الثالثة نفسها فيه نتيجة العلاقات الودية التى قامت بين الاتحاد السوفييتى وألمانيا النازية قبيل الحرب ثم على اى حال ما تم فعلا عام ١٩٤٣ من حل الكومنترن وانتهاء الدولية الثالثة .

وبالرغم من انتهاء الدولية الثالثة وحلها رسميا فان سويزى يرى أنه مادامت الاشتراكية قائمة كحركة فلا بد من وجود دولية حقيقية أيا كان شكلها أو صورة تنظيمها اذ ان الدولية ابعد من ان تموت او تندثر على حد تعبير ماركس .

وفى القسم الثالث والأخير من الكتاب يتعرض سويزى لما يثور من جدل حول الاشتراكية وهل تستطيع ان تقدم حوافز العمل والكفاية بعد استبعاد حافز الربح الرأسمالى وبعد ان يؤكد المؤلف امكانية الاشتراكية على تقديم حوافز للعمل والكفاية ينتقل للاجابة على السؤال الثانى الذى يثيره خصوم الاشتراكية وهو هل تستطيع الاشتراكية استغلال الموارد استغلالا رشيدا ويفند فى هذا الفصل حجج المدارس الرأسمالية الحديثة مبينا اهمية دور التخطيط فى الاقتصاد الاشتراكى ومدى امكانية استغلال الموارد استغلالا رشيدا فى ظل التخطيط الاقتصادى الاشتراكى السليم .

وفى ختام الكتاب يتساءل سويزى هل تتفق الاشتراكية مع الحرية وينتهى سويزى الى القول بأن مبدأ المساواة بين الجميع عميق الجذور فى المجتمع الاشتراكى عمق مبدأ عدم المساواة فى المجتمع الرأسمالى .

هذه محاولة سريعة للالمام بالخطوط الرئيسية فى كتاب « الاشتراكية » لبول سويزى وهو فيما اعتقد أحد الكتب التى تستحق الدراسة والعناية . وقد كتبه بوضوح وبساطة وعمق فى آن واحد وترجمه مترجمه ترجمة بارعة امينة يستحق ان يشكر عليها من كل قارىء عربى ذلك بالرغم من وجود هنات هينات كان من الممكن تفاديها كتسمية اقسام الكتاب اجزاء على حين كان الأولى تسميتها اقساما أو ابوابا وكتقديم مقدمة المحرر على مقدمة المؤلف على خلاف الاصل الانجليزى أو غير ذلك مما لا يمس اطلاقا من ضخامة هذا الجهد المشكور .

اننى ادعو المثقفين العرب الى قراءة هذا الكتاب قراءة واعية لا تسرف فى القبول ولا تسرف فى الرفض وانما تفتح نفسها للفكر الانسانى والتجارب الانسانية تأخذ منها وتعطيها وتتجاوب معها وتتفاعل وتحتفظ مع ذلك كله بمقوماتها الاساسية لانها بدون هذه المقومات تصبح سلبا لا ايجاب فيه .

د . يحيى الجمل

سطور من ديوان

صدى ونور ودموع

يا صباحا آمن الناس به
حين جلاه لنا الفجر وجيها
كبت الأصنام فيه واختفى
فى غيابات الزوايا عابدوها
وتلفتنا حوالينا نرى
ظلمة تجرى ونورا يقتفيها
والخفافيش تولى هربا
تحتمى فى كل ركن يحتويها

ثورة هبت فهبت معها
أمة سومها الخسف بنوها
أسفا ان حملت أرحامها
المسيميها الأذى والخائنيها
نفخ الصور فقامت ثورة
تخلع الخالع والباغى السفيها
هللت للنور منا أعين
تجتلى مشرقه أو يجتليها
وسعت خفاقة أفئدة
أملت خيرا مع الصبح يجيها

قيصر الصغير



تأليف : ركس وارنر

هذا الكتاب يكشف عن مقدرة المؤلف فى دراسة سير عظماء التاريخ بل ويؤكد طول باعه كمؤرخ رصين يجمع بين الدقة فى التفاصيل والطلاوة فى العرض . وفيه يستعرض حياة قيصر منذ ميلاده فى عام ١٠١ حتى بلوغه سن الثانية والاربعين فى عام ٥٩ قبل المسيح ، وهو العام الذى تولى فيه قيصر منصب القنصلية اى رئاسة الجمهورية الرومانية لأول مرة بالاشتراك مع زميله بيبيلوس حيث أن نظام الحكم فى روما كان ثنائيا .

وتوافق هذه الحقبة النصف الأول من القرن الأخير من عصر الجمهورية الرومانية ، وهو من أحفل القرون بالأحداث الجسيمة المثيرة . وفى الحق ان عنوان الكتاب لا يطابق مضمونه كل المطابقة وبالأحرى لا يكشف تماما عن هذا المضمون فهو لا يقتصر على ترجمة لحياة قيصر بل هو سجل حافل ايضا بأبرز أحداث الفترة وأبرز شخصياتها .

وقد اشتهر القرن الأخير من عصر الجمهورية الرومانية بأنه عصر الشخصيات العظيمة التى ظهرت نتيجة للأخطار الجسيمة التى احدقت بالدولة ونتيجة لتضاؤل سلطان هذه الدولة على المواطنين مما أتاح للأفراد فرصة اظهار قوتهم . وليس معنى هذا اغفال العوامل الأخرى الدافعة لتاريخ هذه الفترة او التقليل من شأنها ، بل سنجد هؤلاء الرجال العظام يكافحون الأخطار المدلهمة ويصارعون المشاكل القائمة ويتناحرون فيما بينهم وتتنازعهم فى ذلك كله المصالح القومية أحيانا والأطماع الشخصية أحيانا أخرى . **ومع هذا فلا جدال فى أن هذه الحقبة بخيرها وشرها لا مثيل لها فى التاريخ من ناحية تأثرها بالسلوك الفردى . ومن هنا تصبح الأخلاق الشخصية مثار الاهتمام الشديد بين الناس ، وتشيع كتب السير** وفى مقدمتها كتاب « سير القياصرة » لسويتونيوس و « السير المتقابلة لعظماء اليونان والرومان » لبلوتارخوس. وفى هذا ما يبرر كتابة التاريخ أحيانا فى شكل تراجم للعظماء من قادة وساسة ومصلحين وأدباء . فاذا كانت هناك حقبة تصلح أن يكتب تاريخها على هذا النحو فهى بلا مراء الحقبة الأخيرة من عصر الجمهورية الرومانية ، اذ تزخر بأسماء شهيرة ألفنا سماع أسمائها كما ريوس وسلا وسرتوريوس وبومبى وكراسوس وشيشرون



وقيصر . ولامراء فى ان شخصية متعددة المواهب كقيصر هى اولى من سواها بالترجمة . لان قيصر لم يكن قائدا عسكريا وحسب بل كان ايضا سياسيا ومصلحا وكاتبا مرموقا .

وقد شاء المؤلف ان يجعل الحديث يدور على لسان قيصر وكأنه ترجمة ذاتية ، تأثر فى ذلك بماكتبه قيصر نفسه من مذكرات عن الحرب الغالية « ومذكرات عن الحرب الأهلية » على سبيل الدعاية والدفاع عن نفسه ، وان كان قيصر يحرص فى هذه المذكرات على ان يتكلم عن نفسه بضمير الغائب فيقول على سبيل المثال «زحف قيصر او انسحب او انتصر أو ما الى ذلك » ، وهو اسلوب يختلف الباحثون فى الحكم عليه .. وان كان الراى الغالب انه يكشف عن اعتداد شديد بالنفس بل عن كبرياء وغرور .

وايا كان الأمر فقد آثر ركس وارنر ان يدع قيصر يروى الأحداث بلسانه حتى يكون لكلامه وقع اشد فى نفس القارىء .

ولقد وفق المؤلف فى ذلك الى حد كبير .. لان دراسته العميقة لتاريخ هذه الفترة مكنته من أن يتصور احداثها تصورا قريبا من الحق ، وأن يفهم شخصياتها فهما عميقا حتى ليبدو الكلام وكأنه كلام قيصر نفسه ، تبدو الآراء وكأنها آراء قيصر فى المشاكل والأشخاص . لكن

ترجمة : رشدى السيسى
مراجعة : د . صقر خفاجه
الناشر : مشروع الألف كتاب
بالاشتراك مع مؤسسة سجل العرب
٤٤٥ ص ١٧×٢٤ ش ٣٠ قرشا

يشوب هذه الطريقة عيب واضح وهو احتمال اختلاط الأمر على القارىء غير المتخصص .. فلا يدرى أيها ينسب للمؤلف الحديث وايها ينسب لقيصر .

ويقسم المؤلف كتابه الى اربعة ابواب ... يشتمل كل باب منها على عدة فصول . ويتناول فى الأول اسرة قيصر ونشأته والشخصيات التى تأثر بها فى صباه .. وان الجوهر يدور حول الصراع بين سلا وماريوس ، وانتصار الأول وفرار قيصر من روما خوفا من بطشه . ويتابع فى الباب الثانى الكلام عن خدمة قيصر كضابط صغير فى الجيش جاعلا قيصر يتحدث عن المهام التى وكلت اليه فى الشرق سواء فى مدينة ميليتيوس أو جزيرة لسبوس ، وغيرهما من الأماكن فى آسيا الصغرى حيث وقع بصره على مدينة الشرق اليونانى ، وتعرف على نظام الحكم الملكى ، وسمع عن فكرة تأليه الملوك .

ويمضى ليروى قصة اتصاله المريب بنيقو ميدس ملك بيثينيا ، وهو اتصال لاكته الألسنة وسببت له حرجا شديدا ، ثم وقوعه أسيرا فى يد القراصنة ، وتخلصه من الأسر وانتقامه من آسريه ، وعودته الى روما حيث رشح نفسه لمنصب الكويستور (أى المراقب المالى) وهو ادنى منصب فى سلك المناصب العليا الرومانية .. ولكنه كان يؤهله للدخول كعضو فى مجلس الشيوخ . على أن جوهر هذا الباب يدور فى الحقيقة حول ظهور بومبى وتعاونه مع كراسوس واعتلائهما القنصلية ، وهدم دستور سلا . ويتعرض لبعض الأحداث الهامة .. كحركة تمرد سرتوريوس فى اسبانيا ، وثورة العبيد بزعامة سبارتاكوس فى ايطاليا . ويستهل الباب الثالث برحيل قيصر عن روما ليخدم كمساعد (كويستور) لحكام اسبانيا .. حيث تتاح له فرصة التعرف على مدى اصطباغ تلك الولاية بالطابع الرومانى ، ويلمس التناقض بين حضارتها وحضارة الشرق الهللينستى .

ويشاهد ساجونتوم فتعود به الذاكرة الى حادثة حصار هانيبال لها مما أدى الى نشوب الحرب اليونية . ويزور قادس ويتعرف على بالبوس الذى صار من أخلص اصدقائه . كذلك يلمس فى اسبانيا آثار نفوذ سرتوريوس التى كانت فى نظره اشد امتاعا واكثر أهمية من هذا كله ، اذ تيسر له أن يتحدث مع بعض من عرفوه جيدا ، كأصدقاء وخصوم ، فكان أثر هذا الرجل



العظيم على نفسه قويا « ولو كانت العبقرية وحدها هى التى يعول عليها فى النجاح لكان هو من دون الناس جميعا أهلا للنجاح » . لكن جوهر هذا الباب يدور حول أحداث تاريخية هامة أخرى كصعود نجم بومبى وتوليه قيادة الحملة للقضاء على خطر القراصنة فى البحر الأبيض المتوسط ، وقيادة الحرب ضد مثراداتيس ملك بنطوس فى آسيا الصغرى ، وتحالف قيصر مع كراسوس وتدبير سلسلة من المؤامرات فى العاصمة أثناء غياب بومبى فى الشرق ، ومن بينها مؤامرة كاتيلينا الشهيرة ، ودور شيشرون فى اخمادها ، وما تلاها من مناقشات فى مجلس الشيوخ حول مصير المتآمرين وما اثارته المناقشات من خصومه بين الساسة الرومان .

ويمضى فى الباب الرابع فى سرد موقفه من محاكمة انصار كاتيلينا ، وتعاونه مع نيبوس ، ومخاصمته لكاتو ، وجفوته مع الشاعر الغزلى الرقيق كاتوللوس ، عشيق كلوديا التى يشير اليها الشاعر باسم لسبيا ، وكذلك نفوره من جوبا ابن ملك نوميديا . ويروى بالتفصيل حادثة الحفل النسوى الدينى الذى تسلل اليه كلوديوس ، متخفيا فى زى فتاة ، ليتصل بزوجته بومبيا وارتياب قيصر فى سلوكها ، وما أثارته الحادثة من لفط فى روما ، ومحاكمة كلوديوس وتبرئته ، ثم طلاق قيصر لزوجته الثالثة « لأن زوجة قيصر ينبغى أن تكون فوق مستوى الشبهات » (١) . ويأتى بعد ذلك فوز قيصر بمنصب البريتور (أى قاضى القضاة) وتعيينه حاكما على اسبانيا ، حيث أظهر من ضروب الفروسيةوقوة الاحتمالوالشجاعةما أثار اعجاب الناس . وينوه بزيارته لقرطبة ثم يمضى متحدثا عن عودته الى روما وتقاربه من بومبى وكراسوس وتكوينهم الائتلاف الثلاثى ، وهو ائتلاف سرى غير رسمى القصد منه تحقيق أهداف كل منهم ولو عن طريق القوة العسكرية ويرشح قيصر نفسه للقنصلية ويفوز بها مع بيبيلوس ، وهو رجل لم يكن على وفاق معه لأنه كان فوق قرابته لكاتو ينتمى الى الحزب الارستقراطى المناهض للائتلاف الثلاثى . ويختم الباب بذكر استعداده فى آخر العام للرحيل الى غالة (فرنسا) حيث

(١) تزوج قيصر أربع مرات : كوسيتيا وكورنيليا وبومبيا وكالبرونيا . ولم ينجب سوى ابنة واحدة هى جوليا التى تزوجها بومبى ثم ماتت شابة دون ولد .

عين حاكما بسلطات استثنائية لمدة خمس سنوات .

ويحاول المؤلف ان يجعل السيرة أكثر حيوية وطرافة فيبث بين ثناياها قصصا وحكايات وشائعات كانت تدور على السنة الرومان ، ولا يتحرج عن ذكر بعض الخوارق والمعجزات والأساطير فى بعض الأحيان . ويفعل ذلك دون المساس بجوهر الوقائع التاريخية . ولعله يؤكد بذلك اهمية الأساطير فى دراسة التاريخ القديم بوجه عام والتاريخ اليونانى ـ الرومانى بوجه خاص . ففى معرض حديثه أو بالأحرى حديث قيصر عن نفسه يقول انه سليل اسرة شريفة (بمفهوم الكلمة الرومانى) ، وهى أسرة يوليوس القديمة العريقة التى جاء فى الأساطير انها تنحدر من افروديتى (فينوس) ربة الحب والجمال . ومن ثم نفهم لماذا عنى هذا العاهل بهذه الربة فنصب لها التماثيل وبنى لها المعابد بوصفها « الربة الأم » التى ينحدر من نسلها روميلوس ، مؤسس روما ، بل والشعب الرومانى كافة . ولا مراء فى أن هذا النسب كان من عوامل دعم نفوذ أسرة يوليوس ، ذلك النفوذ الذى تضاءل على مر الأيام الى أن جاء قيصر ودعمه من جديد ورفع من شأن الأسرة .

ولعل الجديد فى كتاب وارنر هو عنايته بموضوع الشخصيات التى كان لها تأثير فى سلوك قيصر واتجاهاته ، وهو شىء لا يطرق كثيرا فى كتب التاريخ الرومانى أو لا يعالج فيها معالجة وافية . وتبدأ سلسلة هذه الشخصيات بأمه اوريليا التى غرست فى نفسه النزعة الواقعية وهى نزعة اتسم بها التفكير الرومانى عامة ، وان كان قيصر قد جمع الى ذلك نزعة علمية لا تتوافر لدى غيره من أقطاب الرومان . ولا ينكر قيصر قيمة المبادىء والتمسك بها ، ولكنه يرى انه لكى يتيسر الافادة منها لابد أن يكيفها المرء بقدر ما وفق الأحداث. وتتركز مأساة عصره وهى ـ على حد قوله ـ فى بعض مغزاها مأساته فى أن الأدواء لم تستطع اللحاق بالداء ، اذ تعددت المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ولم يجد الحكام لها حلولا او اغمضوا اعينهم عليها او لم



يفطنوا اليها اطلاقا . ولم يتأثر قيصر بسلوك الطبقة الشريفة التى ينتمى لها ولم يرض عن مسلك الحزب الأرستقراطى الذى التف حول السناتو وهو مجلس الشيوخ الرومانى ، بل تنبه منذ الصغر الى جمود تلك الطبقة وغبائها واثرتها وعزوفها عن اصلاح الأوضاع . وتعلم منذ وقت مبكر حرية التصرف وسرعة البت فى الأمور . ولذلك لم ينجز منها الا ما كان ضروريا لا ما كان جليل القدر . وقد اشتهر من ميدان الحرب بسرعة زحفه التى صارت مضرب المثل ، واشتهر فى مجال الحكم بسرعة البت فى الأمور والثقة بالنفس والحزم الشديد مما أثار اعجاب فريق من الناس به وأثار سخط فريق آخر عليه . ويستبق الأحداث فيقول **« انه لمن المحتمل ـ والطبيعة البشرية على ما هى عليه ـ أن أحظى بالاعجاب وأكتوى بشواظ المقت سواء بسواء ، لأسباب يجافيها الصواب »** . وقد اختلف راى القدامى فى قيصر كما اختلف راى المحدثين ، ولكنه يندد بالمفرطين فى الاعجاب‌به‌والذين رفعوه الى مصاف الآلهة ، لأن مثل هؤلاء القوم لن ينوا عن تقديس الأقوياء حتى ولو استخدموا هذه القوة ضد مصالحهم بالذات ، وينبع ملقهم الرخيص من ذلتهم المتأصلة. ويندد أيضا بالمغالين فى مقته من الذين حقدوا عليه ، ووصموه بلقب « الملك » أو « الحاكم المطلق » ، وحملوا لفظ « الحرية » من المعانى فوق ما يطيق ، واتهموه بحرمانهم من حقوقهم بدافع من‌الطموح‌الشخصى،

واعتبروه — كما اعتبره «كاتو» خصمه اللدود — نكبة على الجمهورية . ومن ثم فان قيصر لا يحب ان يقحمه الناس فى زمرة الأخيار أو الأشرار ، بل يؤثر ان يصفوه بالعبقرى أو الرجل الضرورى الذى لا غناء عنه .

وثمة حادثة كان لها أثر عميق فى نفس قيصر . وقعت هذه الحادثة لروتيليوس روفوس عم امه ، الذى اتهمه رجال طبقة الفرسان ، وهم أرباب الأعمال والتجارة وجباة الضرائب ، اتهموه بابتزاز الأموال من أهالى ولاية آسيا عندما كان مساعدا لواليها . وصدر الحكم بادانته ونفيه على الرغم من نزاهته واستقامته . وقد عرف قيصر منها جشع رجال هذه الطبقة الراسمالية التى بدات تصطرع مع الطبقة الارستقراطية على توجيه السياسة وادارة دفة الحكم . وخرج قيصر من هذه الواقعة بدرسين احدهما هو أن الفضيلة اذا لم تدعمها قوة مادية فقدرتها على الصمود ازاء أى هجوم منظم محدودة أو معدومة ، والآخر هو ضرورة استناد الشخص الى حزب خاص به يدين له بالولاء على ان يتألف ، اذا كانت تراد له السطوة حقا ، من عناصر طيبة ورديئة وغير مكترثة . وقد ساعده ذلك كله فى الوصول الى قرار وهو الا يسمح لنفسه ان يكون شهيدا ، وبينما يظل ثابتا على مبادئه وفيا لأصدقائه يسلم بقدر معين من المرونة فى الأولى ، ويتخير مجموعة ضخمة متباينة من الآخرين . وتعلم قيصر من خاله « كوتا » الاقبال بشغف على الأدب والفلسفة اليونانية فقرأ مؤلفات المفكرين الاغريق ونظرياتهم السياسية واستمع فى صباه الى مناقشات أفراد اسرة امه المثقفة عن مزايا الديمقراطية والارستقراطية والملكية . واتضح له أن دستور الجمهورية الذى كان موضع اعجاب فى الماضى لم يعد صالحا لأحوال روما بعد توسعها وتعدد مشاكلها ، وصار يتسم بالقصور والتخلف والعطب . وهل كان فى وسع دستور وضع أصلا لمدينة واحدة على التيبر أن يظل ملائما لدولة كبيرة بل امبراطورية شاسعة ؟

لكن الشخصية التى تأثر بها قيصر أكثر من سواها هى بلا ريب شخصية ماريوس ، زوج عمته ، اذ سحرت سيرة هذا الرجل لب قيصر . وملكت عليه شغاف قلبه . وبدا له ماريوس كأنه أسطورة . ولم تبرح ذكراه مخيلته حتى آخر ايامه . كان ماريوس ضابطا صغيرا غير مثقف لا ينتمى الى طبقة الاشراف . وقد تمرد على قواد هذه الطبقة فى الميدان لارتشائهم وفساد ذمتهم وعدم كفايتهم . وقضى على يوجورثا ، أمير نوميديا ، وخصم الرومان ، ورشح نفسه للقنصلية وفاز بها سبع مرات ، ضاربا بالسوابق الدستورية عرض الحائط . وقد اكتسب شعبية كبيرة بفضل اصلاحاته العسكرية التى فتح بها باب التجنيد على مصراعيه لكافة الطبقات دون قيود أو شروط ، واحرز بالجيش الذى كونه واعاد تنظيمه وجدد تسليحه انتصارات رائعة انقذ بها روما من خطر القبائل الجرمانية والمتبربرة الزاحفة من الشمال ، واسهم فى اخماد ثورة الحلفاء الايطاليين الذين تمردوا على روما التى انكرت عليهم حقوق الجنسية الرومانية كاملة . هذا الرجل الذى ادى لوطنه هذه الخدمات الجليلة كقائد عسكرى ، اخفق كزعيم سياسى ، اذ أسلم قياده لزعماء الشعب المتطرفين والغوغاء المستهترين ، واستخدم الجيش الذى اصبح ولاؤه لقائده وليس للدولة ، استخدمه فى انتهاك الدستور والتنكيل بخصومه ، واصطرع مع قائد كفء آخر وهو سلا الذى ينتمى الى أسرة شريفة قليلة الثراء ، وكان صلفا قاسيا رجعى التفكير لا يعطف على الجماهير ولا يؤمن الا بالسناتو وهو مجلس الشيوخ الرومانى الذى احرز بفضل خبرته وحنكته وبعد نظره تلك الانتصارات التى دعمت صرح الجمهورية . ومن ثم راى سلا ان يدعم هذا المجلس ويجعله محورا لدستوره الذى وضعه بغية تقليم اظافر خصومه من زعماء الحزب الشعبى أو الديمقراطى ، وفى مقدمتهم ماريوس . وقد احتدم صراع بين الزعيمين حول قيادة الحزب ضد مثراداتيس ، ملك بنطوس . وفى غمرة هذا الصراع اهدرت المصالح القومية وضرب بالقيم الاخلاقية عرض الحائط . وتأرجحت العاصمة الرومانية بين ماريوس وسلا وصارت نهبا للتطاحن الحزبى والانتقام والقسوة البالغة وانتهكت الحرمات وصودرت الأملاك

وازهقت الأرواح وسالت الدماء غزيرة فى الشوارع . وقد انطبعت صور هذه الوحشية فى ذهن قيصر فلم يرض عن هذين الزعيمين وان لم ينكر مواهب كل منهما . ونلمس حيرته بين اعجابه بشخصية ماريوس الشعبية وبساطته وانطلاقه ونزوعه الى مشاركة الناس شعورهم فى غير كلفة وبين تبرمه به بعد ان انحرف فى شيخوخته عن جادة الصواب وطار صوابهوتحجر قلبه وانطلقت همجيته من عقالها . واذا كان سلا قد انار الطريق امام غيره من الزعماء — ومن بينهم قيصر — لحل المشاكل عن طريق القوة والانفراد بالسلطة ، فان ماريوس هو أحد الشخصيات الهامة التى أثرت فى تفكير قيصر وغرست فى نفسه الميل نحو الحزب الشعبى أو الديمقراطى ، ذلك الحزب الذى انعقد له لواؤه فى مستقبل أيامه وناضل به حزب السناتو او الحزب الأرستقراطى . وقد بهرته سيرة رجل آخر وهو سرتوريوس الذى عمل فى الحرب الايطالية تحت لواء سلا ثم أثارت انتصاراته غيرة الدكتاتور فنقم عليه . وقد دفعه ذلك الى مشايعة ماريوس ولكنه لم يرض ابداً عن أساليب العنف والأرهاب والقتل التى انتهجها كل من الزعيمين ، فآثر الالتجاء الى اسبانيا حيث استمال الوطنيين الأسبان الى جانبه وجمع جيشا واعلن العصيان . وبهذا الجيش ناوأ حكومة سلا والسناتو وتحداهما ودوخ قواد روما وكاد أن ينتصر علىبومبىنفسهلولا أنانقض بعض انصاره من حوله لصرامته فتآمروا عليه ودبراوا اغتياله . وقد عرف ببراعته العسكرية وبخاصة فى تنظيم حرب العصابات ، وبكفاءته الادارية وبسالته ونزاهته . وعرف ايضا بنزعة خيالية لا نالفها بين بنى قومه من الرومان .

ولعله اول رومانى حاول السيطرة على مقاليد الحكم فى روما بدعم مركزه العسكرى اولا فى الولايات ضاربا بذلك المثل الذى احتذاه يوليوس قيصرمن بعده . ويشيد قيصربعبقرية سرتوريوس الفذة ويرى انه كان الوحيد الذى يستطيع ان يكون ندآ لسلا . ويذكر بزهو انه قاد كسرتوريوس اول جيش كبير فى أسبانيا ، وانه خاض فيها أولى معارك الحرب الأهلية العظيمة وآخرها . ولا شك فى ان قيصر قد سمع فى صباه عن الاخوين تيبريوس وجايوس جراكوس اللذين لقيا حتفهما فى سبيل دعوتهما لاصلاح الأحوال فى روما قبل مولده بحوالى ثلاثين عاما . وقد ظهر أثناء حياته مصلح آخر هو ليفيوس دروسوس الذى اغتاله نفر من اعوان السناتو لمناداته باصلاح دور القضاء ومنح الجنسية الرومانية للايطاليين . ولم ينس قيصر هذه الحادثة فظلت عالقة فى ذهنه . ولما آن الأوان وآلت اليه السلطة منح الجنسية الرومانية لكل من لم يحصلوا عليها من الايطاليين واصبحت ايطاليا المتحدة كلها رومانية ، أو على حد قول باحث آخر ، أصبحت روما نفسها ايطالية . ولم يقف عند هذا الحد فتوسع فى منح الرعوية الرومانية لكثير من سكان الولايات ، متخطيا الحاجز الذى وقف كالحجر العثرة فى وجه نمو الدويلات الاغريقية وعجل بانهيارها : وكاشفا بذلك عن روح تقدمية كبيرة وادراكسليم لمصالح روما الحقيقية .

ويمضى قيصر ليروى لنا كيف تقلد وهو فى سن مبكر أول منصب دينى ككاهن للاله جوبيتر ، منوها بأهمية الطقوس الدينية ، برغم تعقدها وابهامها ، كعامل من عوامل الاستقرار

والثبات فى الدولة لأن الصلوات والقرابين ، وان كانت عديمة المعنى فى تفاصيلها ، الا انه كان لها هدف عام وأثر شعبى ويبدى قيصر نفوره من الديانات الشرقية والعبادات الأسيوية العاطفية التى بدات تنتشر بين الشعب الرومانى وبخاصة بين النساء ، ذلك لأنه برغم منافعها النفسية الا انها ليست مأمونة العواقب تماما إذ تجنح الى تقويض العقيدة اللازمة للتمسك بالواجبات نحو الدولة ، « لأن معالم الواجبات تطمس فى لحظات الانتشاء العاطفى او البدنى » . وقد ولى قيصر فيما بعد منصب « الكاهن الأعظم » ، وهو منصب رسمى شكلى بحت ، وكان يشغل كأى منصب سياسى آخر عن طريق الانتخاب . وقد لوحظ فى النقوش التى وصلتنا أنه كان يحرص دائما على لقبين أحدهما هو « القائد الأعلى » ، رمز السلطة العسكرية ، والثانى هو « الكاهن الاعظم » ، رمز السلطة الدينية .

ويتابع قيصر الكلام عن انطباعاته السياسية فيحدثنا عن قواد من تلاميذ سلا كبومبى وكراسوس ولو كللوس . وقد بهرته — كما بهرت غيره من الرومان — اعمال بومبى الذى عاون سلا فى القضاء على فلول جيش انصار ماريوس ، واحرز عدة انتصارات ، وطالب بدخول روما فى موكب نصر ، ونودى من جنوده بالامبراطور اى « القائد الأعلى » ، وحصل على موافقة سلا بأن يلقب نفسه « بالكبير » أو « الأكبر » . ولم يلبث أن طالب باسناد قيادات غير عادية اليه فى حملات عسكرية خطيرة على الرغم من عدم توافر الشروط اللازمة فيه ، وارتياب مجلس الشيوخ فى نواياه وأهدافه . وقد استعان بنقباء العامة للظفر بهذه القيادات ، فخرج بالجيش الى أسبانيا ليقمع ثورة سرتوريوس ، واشترك عند عودته فى اخماد ثورة العبيد بزعامة سبارتاكوس فى ايطاليا ، واختير بمقتضى « قانون جابينيوس » قائدا لاستئصال شأفة القراصنة فى البحر المتوسط ، وبمقتضى قانون مانيليوس قائدا الانهاء الحرب ضد مثراداتيس ملك بنطوس بآسيا الصغرى . وقد تولى القنصلية فى تلك الأثناء بالاشتراك مع كراسوس وتعاون معه على هدم دستور سلا كسبا لتأييد الطبقات المناوئة لمجلس الشيوخ .

ويقتحم قيصر معترك السياسة الرومانية أثناء غياب بومبى فى الحملة الأسيوية فيجد فى كراسوس حليفا له على تحقيق اهدافه ، وان كان كراسوس هو الآخر قد اعتقد أنه فى استطاعته أن يستخدم قيصر كأداة لبلوغ مآربه . ويتفق الاثنان على تكوين جبهة واحدة . لمناوأة بومبى والحد من شوكته بعد ايابه من الشرق . وكان كراسوس محاميا فاحش الثراء حتى انه لقب « بالثرى » بينما كان قيصر مفلساً بسبب اسرافه وتبذيره ، وفى أشد الحاجة الى المال حتى يضمن الفوز فى الانتخابات بمنصب « المحتسب » . وهو منصب كان يتيح لصاحبه فرصة التودد الى الجماهير باقامة الحفلات والمآدب والمهرجانات الرياضية . وقد احرز قيصر بفضل هذا المنصب شعبية كبيرة ولو ان الديون اثقلته ولم يستطع ازاحتها عن كاهله الا بالأسلاب والمغانم التى آلت اليه أثناء الحروب الأهلية الأخيرة قبل مصرعه . وقد اخفقت كل المؤامرات التى دبرت ضد بومبى أثناء غيابه ، وكان من أخطرها « مؤامرة كاتيلينا » ، وهو رجل من الأشراف كان قد أثرى على حساب ضحايا سلا ولكنه اضاع ثروته بطيشه وبذخه وفساد خلقه ، فشرع ينادى بضرورة الغاء الديون جميعا ، وهى دعوة براقة فى ظاهرها ،

سطور من كتاب ...

« والتفتا — ذراعا فى ذراع — وعادا صوب الحجرة الغاصة بالأصدقاء المنتظرين . عادا يمشيان بخفة وابتهاج نصف متناوحين على ايقاع الموسيقى . هما الآن يعودان راقصين الى الحياة ، الحياة التلقائية ، الحياة الدافقة ، الحياة مفتوحة الذراعين .

لقد انتهى الأمر بالنسبة للآباء والأمهات . فهم وقوف فى شىء من الانكماش يرقبون اطفالهم وهم يستديرون ليواجهوا طريق العودة . وكانوا عند ذهابهم كأنهم فى اطار من الوقار الرسمى فبدوا أطول قامة . أما الآن فقد تجردوا فجاة من الاطار الشكلى فبدوا أميل للضآلة . لقد

ولكنها أثارت بتطرفها استياء العناصر المعتدلة الفاضلة فى حزبى السناتو والفرسان . وقد اوجس شيشرون ـ الذى شق طريقه فى المجتمع الرومانى بمواهبه الخطابية الفائقة ـ خيفة من حركة كاتيلينا واستطاع ان يؤلف بين هذه العناصر وأن يحقق سياسة « الوئام بين الطبقتين » حتى فاز بالقنصلية وخذل كاتيلينا واخمدت مؤامرته الخطيرة التى كانت تهدف الى الاستيلاء على الحكم عنوة . ومع أن كراسوس وقيصر لم يحضا كاتيلينا على تدبير هذه المؤامرة الا انهما كانا يعطفان عليه ، ويتمنيان أن يستعينا به لولا ان تكشف لهما تهوره وحماقته وسوء تصرفه . وجدير بالذكر أن المناقشة التى دارت فى مجلس الشيوخ حول مصير المتآمرين هى التى اذكت نار الكراهية بين قيصر وكاتو الملقب « بالأوتيكى » ، ذلك الرجل الرواقى العنيد الذى وقف لقيصر بالمرصاد وناصبه العداء طوال حياته الى أن حوصر مع جيشه فى أويتكا (بشمال افريقيا) فآثر الانتحار على الاستسلام لقيصر حتى لا يرى بعينيه الجمهورية وهى تلفظ انفسها الأخيرة .

ويعود بومبى من الشرق وتتهيأ الظروف للتقارب بين الأقطاب الثلاثة الذين يجدون فى تحالفهم الوسيلة الوحيدة لتحقيق مآرب كل منهم . ويمد قيصر وكراسوس يد المعونة لبومبى الذى رفض مجلس الشيوخ المصادقة على تنظيماته فى الشرق جملة أو منح جنوده المسرحين اقطاعات زراعية مكافأة لهم على خدمتهم العسكرية الطويلة . ويستعين الأقطاب بهؤلاء الجنود على ارهاب مجلس الشيوخ . ويعقدون فيما بينهم « ائتلافا ثلاثيا » سريا غير رسمى ، فيحصل بومبى بمقتضاه على وعد بقيادة غير عادية فى أسبانيا ، ويحصل كراسوس على مثلها فى سوريا ، ويخوض قيصر معركة القنصلية ويفوز بها بفضل تأييد زميليه ، ويشرع فى تنفيذ مطالبهما الأخرى ، ويضمن لنفسه فى آخر ذلك العام الفوز بقيادة طويلة الأمد فى بلاد الغال وهى فرنسا .

وبقنصلية قيصر الأولى عام ٥٩ قبل الميلاد يختتم ركس وارنر كتابه الطريف الذى لا يقل تعريبه طرافة عن الأصل الانجليزى . ولا تقلل الأخطاء المطبعية القليلة ولا الهفوات الطفيفة الأخرى من قيمته . ومن الواضح أن الكتاب لا يعالج سيرة قيصر حتى نهايتها ، ولكنه يتوقف عند نقطة هامة فى تاريخه السياسى . ونحن نترقب بتلهف الجزء الثانى الذى نرجو أن يعالج فيه المؤلف الحقبة الأخيرة المثيرة من حياة قيصر والتى هى أيضا الحقبة الأخيرة الحاسمة من حياة الجمهورية الرومانية .

د . عبد اللطيف أحمد على

ارتدوا الى هياكلهم البشرية الصغيرة الواهنة ، فبدوا مسنين مجهدين دفعوا الى خارج الأعتاب ، ثم غودروا هناك .

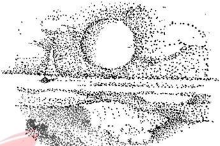
وانتهى الأمر بالنسبة للمدعوين الى العرس . فسرى فى الحجرة حفيف من الاسترخاء بعد توتر . لقد انتهى الأمر أخيرا فيالها من راحة . واستدارت الرءوس ، واشرابت الوجوه ، وتنقلت الأقدام وحالت الأجساد الى الأمام ، وتلاقت العيون وتعارفت وتبادلت الترحيب ، وتبودلت الابتسامات والايماءات . انهم لم يعودوا ارواحا متفرقة تعيش حيواتها فى عزلة فكرية ، بل هم أصدقاء واقارب ، تربطهم أواصر زواج عائلى .

وتماوجت الصفوف المتراصة وتحطمت أشكالا متفرقة تبعثرت هنا وهناك فى نمط جديد . ثم احاطت فى زحام كثير الطنين حول العروسين .

... ابنتى الحبيبة

.. خواطر وتأملات

من وحي الإسكندرية



نظم عادل الغضبان

الناشر : دار المعارف ٥٦ ص ١٧×٢٤ سم

حينما فرغ الشاعر الاستاذ عادل الغضبان من عمل هذه القصيدة التاريخية الرائعة ، تواضع هو – كعادته فسماها باسمها الحقيقي : قصيدة عن الاسكندرية ، ثم زاد من الخيال الشعرى المحلق فى التسمية ، فأسماها : قصة عروس البحر ، من الاسكندر الى عبد الناصر . ولكن جماعة من المعجبين حملهم الاعجاب الى أن سموا هذه القصيدة الفاتنة « ملحمة » ، ولم ينظروا اذا كان تعريف الملاحم ينطبق عليها أم لا .

وفى غمرة هذا الاعجاب الذى لا ننكره ، نترك الشاعر عادل الغضبان يحدد لنا فى دقة واناقة تعبيره مكان هذه القصيدة الطويلة من فنون الأدب قائلا « ويوم تفضل المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، فدعانى الى الاشتراك فى مهرجان الشعر الذى يعقده بمدينة الاسكندرية ، أثارت دعوتى فى نفسى حبا مبيتا فى الضلوع ، واعجابا انطوت عليه الجوانح ، فرأيتنى أبتسم للدعوة الكريمة والبيها ، ووجدتنى أصغى الى شعور صادق يجيش فى صدرى ، ويوحى الى بنظم قصيدة عن الاسكندرية . وما هى الا لحظات استخرت فيها عرائس الشعر ، حتى عرضن على الخاطر فى أسرع من الظن قصة عروس البحر من الاسكندر الى عبد الناصر ، كأنهم يرسمن لى هيكل القصيدة وموضوعاتها ، وكأنهن يقلن لى : سر فى هذا الطريق الى غايتك . فمشيت فى مناكب التاريخ تارة ، وفى مواكب الحسن تارة أخرى ، متنقلا على أجنحة الفكر من عصر الى عصر ، ومن حدث الى حدث ، ومن روعة سحر الى روعة سحر ، ومن مأثرة الى مأثرة ، حتى امتد بى نفس الكلام الى هذا القدر من القصيدة . وكان حقيقا ان يمتد الى أطول من ذلك توفية لموضوع جليل تنوء به كبريات الملاحم . وما هذه القصيدة التى بين يديك الا تحية عربية خالصة بثها الاسكندرية وأهلها الكرام فى أبيات من الشعر ، اكتفت باللمحة الخاطفة عن النظرة العميقة الشاملة » .

فالشاعر عادل الغضبان يؤكد غير مرة فى هذه السطور من مقدمة كتابه انها « قصيدة »، وانه مشى فى مناكب التاريخ ومواكبه من عهد الاسكندر الى عهد جمال عبد الناصر ، فكان من هذه المواكب هذه القصيدة .

ومن هنا يتضح لنا أن تسمية هذه القصيدة الرائعة « بالملحمة » هو عمل فيه كثير من التساهل فى التعبير ، وفيه كثير من مجاوزة الحق الذى لا يرضى عنه عادل الغضبان نفسه . فلا اشك فى أن شاعرنا يعرف حدود « الملحمة » كما حددها أصحابها فى الآداب الأجنبية ، ويعرف صفات الملحمة وسماتها كما جاءت فى الياذة هوميروس التى ترجمها الى العربية شعرا المرحوم سليمان البستانى

فى احد عشر الف بيت ، ويعرف اكثر من هذا ان الملحمة ليست تحويل حوادث التاريخ الى شعر مهما يكن جميلا ورائعا ، وانها ليست نظم الأحداث التى مرت بشخص أو بامة او بمدينة من المدن ، وانها ليست عملا آليا تحويليا ، يحول الحدث المنثور الى حدث منظوم .

وقد نظم الشاعر الرصين المرحوم احمد محرم قصيدة تاريخية كبرى سماها « الالياذة الاسلامية » وقصد ـ رحمة الله ـ بهذه التسمية ان يجعلها « ملحمة » فى الشعر العربى الحديث ، ولكن الناس لم يرضوا عن هذه التسمية ، ولا اقتنعوا بها ، ولا آمنوا بمطابقتها على الواقع الفنى للقصيدة التاريخية ، فتصدى لها ناقدون ، وكان منهم الدكتور شوقى ضيف الذى انكر على « الأليـاذة الاسلامية » لأحمد محرم ان تكون اليـاذة ، أو أن تكون ملحمة ، أو ان تكون حتى شعرا قصصيا ، فقال : (وهل يمكن أن نعد ما قرأناه لمحرم الياذة أو شعرا قصصيا ؟ انما هو قصائد جمع بعضها الى بعض ، وسميت الياذة ، ولن يغير الاسم من مدلولها الحقيقى شيئا . . . فهو اسم لا يطابق مسماه ، لا من حيث الشكل ، ولا من حيث الموضوع . . .) .

واذا كان الشاعر أحمد محرم هو الذى اختار لشعره التاريخى الاسلامى هذه التسمية التى لم يرض عنها النقاد لمجافاتها سمات الملاحم وشروطها ، فأن الشاعر عادل الفضبان كان أحصف من أن يسمى قصيدته عن الاسكندرية « ملحمة » ، بل كان كما نعهده دائما من الدقة والتحرى والتبين (١) ، فاسماها على حقيقتها « قصيدة » .

وليس نظم الصديق القديم الشاعر عادل الغضبان اذا جعلنا قصيدته عن الاسكندرية لونا من الشعر التاريخى ، ففى الشعر التاريخى جفاف لا نجد فى قصيدة عادل ، بل نجد فيها النضرة والخيال ، وان كانت فى بعض المواقف تميل الى السرد التاريخى فى أسلوب جميل . نعم ! نظم الشاعر الغضبان ونظم رائعته عن الاسكندرية اذا عددناها شعرا تاريخيا ، والا كانت مثل القصيدة التاريخية ـ مثلا لمتنبى الأندلس : ابى طالب عبد الجبار من شعراء الأندلس وأدبائها فى القرن الخامس . فأن قصيدة عبد الجبار هذا ـ مهما بالغ ابن بسام صاحب الذخيرة فى وصفها ـ لا تعدو أن تكون نصا تاريخيا شعريا جافا على الرغم من اشتمال فصولها على علم جليل ، وباع فى الخبر طويل . . .) . والحق أن هذا العلم الجليل وهذا الباع الطويل فى الاخبار هو الذى جعل من قصيدة عبد الجبار التاريخية شيئا جافا لا يصح أن نلز معه قصيدة عادل الفضبان فى قرن . . .

ونأخذ هنا لقطة سريعة من أرجوزة ابى طالب عبد الجبار فى تصوير حروب الخليفة المعتمد مع الصفار والثوار ، ثم انتهائه الى الموت الذى يسلب الملوك ماملكوا . ونأخذ لقطة سريعة من قصيدة عادل الغضبان يصور فيها سلطان الأسكندر وانتصاراته وانتهاءه الى المنية التى لا يدفعها الصبا الفض ولا القنا السمر :

يقول عبد الجبار فى المعتمد

فولى المعتمد الخلافه
فآثرت اللذات والسلافه
وكان فى حرب مع الصفار
وغيره من سائر الثوار
حتى دهاه ما دهى البريه
فسلبته ملكه المنيه . . . .

ويقول عادل الفضبان فى الأسكندر :

أيها الفازى الذى دانت له
امم الأرض ملوكا ورعيه
لا الصبا الفض ولا سمر القنا
دفعا عنك اظافير المنيه . . .
عدت للشاطىء .. لكن جسدا
كفنوه بالحواشى الذهبيه . . .

أرأيت كيف يكون الشعر وكيف يكون النظم ؟ أرأيت كيف تحس وانت تقرأ

(١) التبين هو التثبت ، وقد جاءت فى القرآن الكريم : دستور الاسلام والمسلمين فى سورة الحجرات هكذا : « يايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على مافعلتم نادمين » .

كلام عبد الجبار المنظوم انك تقرأ نظما تعليميا جافا ، وكيف تحس وانت تقرأ أبيات عادل الفضبان انك تقرأ شعرا فيه الاحساس بعظمة الفازى ، ومن ورائها عظمة الموت الذى لا يرحم شبابا غضا ، ولا يرهب قنا سمهريا ؟ ! .

ولقد انتهز الشاعر عادل الفضبان كل فرصة فى مواكب الاسكندرية خلال العصور ليجعل منها لوحات رائعة متوالية ، كانه يعرض أمام عينيك صندوق الدنيا فى تتابع لا يمل ... وكان البحر والرمل دائما وفى كل عصر هما المهاد الذى يمهد به ويفرش لكل صورة . ففى مطلع القصيدة صورة جميلة للسماء والخضم والرمال يقول فيها :

قبة من لا زورد ، وثرى
من عقيق ورمال عسجدية
وخضم يضحك الموج به
تخذته السحب مرآة وضية

وفى صفحة ٤٦ صورة فاتنة للشاطىء الاسكندرى فى الفجر حين توقظه قبلة الفجر ، ثم حين يصحو الشاطىء بعد هذا ، فتمس رماله نواعم الأجسام ! فيقول :

بأبى الشطان فى الفجر اذا
ايقظتها قبلة الفجر البريه
أشرقت وردية الخد ... كما
اشرقت وجنة حسناء حييه
وصحت ترشف صهباء الندى
حملتها السحب للريح الرخيه
تبث الشوق زوار النقا
تخذو منه وسادا وحشية
كلما لامس جسما ناعما
هزهزته رعشات كهربيه .. !

وفى صفحة ٥١ يعود الشاعر الى منظر البحر والسماء والرمل والشاطىء فى الغروب ، فيقول فى ابداع ما بعده ابداع :

هل شهدت الثغر والشمس به
غربت خلف الغيوم الأزليه ؟
قرض البحر حشاها .. فجرى
فى ثناياه خيوطا دمويه
وانحنى الأفق على نعش السنا
وهو يبكى بدموع قرمزيه

متعة للعين فى دنيا الورى
وأسى يغشى الديار الفلكيه ..

ولما كان الشاعر عادل الفضبان يستعرض موكبا طويلا حافلا من مواكب الأسكندرية فى التاريخ ، فهو بحكم هذا العرض الطويل تصادفه متناقضات ، ومعارضات ، وأضداد . وقد انعكس هذا على نظمه فى القصيدة ، فهو مولع بالطباق والمقابلة بين المعانى المتضادة فى كل لمحة ... كقوله فى صفحة ٢٣ :

وتصاوير وأوثان جلت
صور الدين بدنيا الوثنيه

وقوله فى ص ٣٩ عن جمال عبد الناصر :

شب يرعى سرها ، حتى اذا
حان وعد الله باتت علنيه

وقوله فى ص ٤٠

وانين البؤس فى مسمعه
عده رجع أناشيد شجيه
هجعت فيها المعالى حقبا
وصحت تبعث مجد التبعيه

وقوله فى ص ٥٤ :

فعلى تالدك الضخم رضا
وعلى طارفك الفخم تحيه

وفى خلال جولة الشاعر خلال تاريخ الاسكندرية الطويل تصادفه بطولات كثيرة : بطولات فى ساح القتال ، ومعترك النضال ، وبطولات فى العلم ، وفى الفن ، وفى التربية الرياضية ، والشاعر هنا مفرم بهذه البطولات وبأصحابها ، حتى ولو كان البطل فاتحا كالاسكندر ... فيقول عن أهل الاسكندرية :

وروت عنهم أحاديث الفدى
سور البذل ، وآى الوطنيه



ثم يشير الى بطولاتهم فى مقطع خاص عنوانه « منبت الأبطال » . ولكنــه لا ينسى أن يشيد ببطولةالاسكندر المقدونى ــ ولو كان غازيا فاتحا، بقوله :

فاتح كم دك مــن حصــن وكم
دق أعنــاق صــناديد كميه
قــاد للثــأر جيــوشــا حــرة
تمهر العــزة أرواحا زكيه ...

وحين تختلط البطولات فى الأعــداء بالمــعانى الوطنية الرائعة ، فأن الشاعر المنصف يجب أن يضع حــدا فاصــلا بين الأمور ، حتى لا تمجد بطولة الفاتحين ، وما هى الا عدوان على حريات الشعوب وعلى اقدس حقوقها فى الحياة ....

لقد انصف عــادل الفضبان حين صور الرومان على حقيقتهــم فى الســلب والنهــب والبغى قائلا :

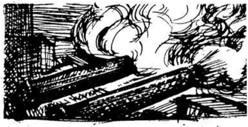
نزلوا الثغر ، وعاشوا فى القرى
واستحلوا غلة الأرض السخيه
واذا مــا علقت أعينهـــــم
بنفيس فى الكنـــوز الأثريـــه
سرقوه ، واصطفوا « روما » به
فاستزادتهم غنى وهى ثريــه

ثم كان البيزنطيون مثل الرومان عسفا وبغيا ، فهم وارثوهم فى سوء الحكم وسوء الطوية :

ورثا الســدة « بيزنطا » فلــم
تك الا مثلهم ســــوء طويه
عسفت فى حكمها واضــطهدت
وأثارتهــا حــروبا مذهبيــه

وانصف عادل حين وصف جهالة الحكم التركى ووحشيته قائلا :

فمحاها الترك جهلا ومضـــوا
يسحبون الخــزى أردانا زريه



رحــل الترك عن الثغــر وكم
خلف الترك وحوشــا آدميــة

وانصف عادل حين وصف جور الأنجليز وخبث نياتهم زمن الاحتلال قلائلا :

جــارح ولى ووافت بعــده
من بنى «التاميز» حيتانضرية
حمرة الفرصــاد فى ســحنتــها
والدبى لون العيون الخــرزيه
نسـلتهــا دولــة جــائرة
ونمــاها أخبث الأقــوام نيــه

ولكن شاعرنا كان مترفقا بنابليون ، فلم يشر الا الى عودته الشقية الى فرنسا :

بجناحــين مهيضــين مشى
بهمــا يعــرج فى كــل ثنيــه

ومن جمال الشعر فى هذه القصيدة أن ناظمها يحيل المعانى الوطنية ، بل المعانى الشريفة ، الى أبيات يجريها مجرى الحكمة والمثل . كقوله ــ ولو أنه مع الأسف عن الأسكندر :

وكذا الحــر اذا نادى الحمى
يالقومى ! وهب الروح ضحيه

وكقوله عن فتوحات الأسكندر أيضا ، ويبدو أنه شديد الاعجاب به :

شرف الفتــح اذا لم يحمــه
شرف الخلق محته الهمجيــه

وكقوله عن الحب المتبــادل بين كليوبترة وانطونيو :

تيمتــــه ، مثلمــــا تيمهــا
شرعة الحب منال وعطيه ..

وكقوله عن البطل المصرى الأسكندرى « محمد كريم » :

ميتة الحـــر حيـــاة للحمى
وانبعاث للمروءات الخبيــــه

ويظهر ان طول الشوط التاريخى من عهــد الاسكندر الى يومنا هذا قد كاد يضيع من يدى الشاعر عادل الفضبــان ذلك السلك التاريخى

الذى لا يحسن فى الشعر التاريخى أن ينقطع . فنحن نراه فى المقطع الخاص بحديقة الخالدين يذكر امجاد الاسكندرية فى مقاومة الحملة الفرنسية ، وهذا لا غبار عليه ، ولكن كان من حق هذا الكلام ان يجىء قبل هذا فى موضعه الزمنى من القصيدة قبل الاحتلال الانجليزى وبعد رحيل الترك ، حتى يكون القصص التاريخى سائرا جنبا الى جنب مع الموكب الزمنى للتاريخ لا متخلفا ، ولا سابقا ...

بقيت لنا كلمة على نظم هذه القصيدة واسلوبها ؛ والحق ان الزمن ، المغير المتغير ، لم يغير من عهدنا بشاعرية عادل الغضبان شيئا .. فهذه الأناقة فى اختيار اللفظة الشعرية الملائمة ، وهذه القافية أو الروى الواحد الرصين ، الذى يصيب مكانه تمام الاصابة ، ويأتى فى كمال موضعه ، وهذه الدقة اللغوية الناجمة من بصر وحذق باستعمال الألفاظ اللغوية — هى بعض خصائص الصفة الشعرية الأصيلة عند الشاعر .

لقد بلغت ابيات قصيدة « من وحى الاسكندرية » سبعة وثمانين ومائة بيت ، لم يكرر فيها الشاعر عادل الغضبان قافية واحدة ، وقد كان له فى هذا الروى الذى وفق فى اختياره — غنى أى غنى عن تكرار القوافى . وما لاحظنا عليه فى هذه القصيدة الطويلة العديدة الأبيات قافية قلقة ، أو نابية ، أو مقحمة ، الا فى بيت واحد : واحد فقط ، يسمح لنا الصديق القديم أن نذكره هنا ، وهو قوله :

يزحف النـاس الى منبره
زحفهم عند الصلاة المسجديه

فما هذه المسجدية فى الصلاة ؟ اغلب الظن أنها من حكم القافية التى لا ترحم ، ولا تعذر ..!

اما الدقة اللغوية فحسبك ايها القارىء الكريم أن تعرف أن الشاعر استعمل « وريه » بدلا من « وارية » فى قوله :

كفلتـه لك يا طير اذا
سكت المدفع ازناد وريه

وهو استعمال صحيح فصيح لا يعرفه الا البصير باللغة . وانه استعمل « انعمى علينا » بدلا من « قرى عينا » ، فى قوله عن جمال عبد الناصر :

فانعمى بابنك عينا وافخرى
أن بكفيه طردت الملكيه

وهو استعمال عربى صحيح فصيح لا يعرفه الا المتمكن من اللغة .

ومن توفيقات الشاعر فى قوافيه ورويه انه استعمل لفظتى : عربية ، ويعربية فى مكانهما المناسب . فاستعمل « اليعربية » فى مقام الفنون ودور السيد درويش فيها قائلا :

جدد الفن ، ولم يبعد به
عن مقامات الفنون اليعربيه

وادخر لفظة « العربية » لمجال آخر اكثر ملاءمة ، واحسن مناسبة ، حين قال :

جازه شرقا وغربا ، وأتى
يهب التيجان مصر العربيه

فوصف مصر هنا بالعربية أحذق ، وأدل على مسارات العروبة واتجاهاتها ومسمياتها الحقيقية

هذه بعض خصائص الصفة الشعرية فى قصيدة «من وحى الاسكندرية» . اما شاعرية صاحبها فقضية مفروغ منها ، وحسبك ايها القارىء الكريم من هذا ان تقرا المقدمة النثرية التى قدم بها الشاعر لقصيدته ، لتسلم معى بأن عادل الغضبان قدم لنا فى هذا الكتاب الممتع الأنيق قصيدتين شعريتين .. لا قصيدة واحدة .. !!

محمد عبد الغنى حسن



المسرح اليابانى

تأليف : فوبيون باورز
ترجمة : سعد زغلول نصار
مراجعة : سعيد خطاب
الناشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة
٣٢٣ ص ١٧ × ٢٤ ث ١٧ قرشا

هذا الكتاب يفيدنا جدا لأنه يقدم لنا معلومات كثيرة جدا ، ولكن هذه المعلومات على كثرتها لا تشبعنا ... والغريب اننا ــ او على الأصح اننى ــ لم اشعر بحاجتى الى معلومات اكثر ، لكى اشبع ، وانما شعرت بالحاجة الى زيادة شرح وتحليل نفس المعلومات ... ومع ذلك فالكتاب بتقديمه هذه المعلومات يعطى مادة غنية للتفكير المسرحى ، وطبعا تزداد غنى كلما تأملنا فيها وناقشناها ، وكنت ارجو ان يفعل ذلك الاستاذان المترجم والمراجع ، ولكنهما اكتفيا بمقدمة (جو شوا لوجان) ، وهذا هو ما ادهشنى ... لماذا ؟ ! لانه مخرج امريكى ، بينما الكتاب من المسرح اليابانى ، وايضا هو مخرج سينمائى ، بينما الكتاب لا يتجاوز مادته المسرحية ... واذن كان ينبغى ان يحاولا تقريبا ما فى الكتاب من معلومات الى اذهاننا بالشرح والتحليل والنظرة المقارنة كلما امكن ذلك ... ملاحظة اخرى : كان ينبغى ان

يقدما لنا فكرة عن المؤلف لندرك شيئا من قيمته العلمية ، ولكنهما سكتا نهائيا من هذه الناحية ومن نواح أخرى كثيرة أرجىء الحديث عنها لأتحدث عن الكتاب نفسه .

* * *

منهج المؤلف سليم ، ولكنه منهج تقليدى .. انه يبدأ بمقدمة تاريخية للمسرح اليابانى ، ويتدرج من الأصل الأسطورى لهذا المسرح الى ان يصل الى العصر الحديث أو (المسرح اليوم)،



ولو انك لا تستطيع تحديد هذا «اليوم» لأن المؤلف اغفل ذكر تاريخ تأليف كتابه ، لولا سطر واحد كتبه المترجم فى هامش صفحة ٢٦٢ وقال فيه « هذا الكتاب صدر قبل عقد معاهدة الصلح مع اليابان» وأيضا لولا سطر واحد فى أول صفحة ٢٧١ ذكر فيه المؤلف (سنة ١٩٥٠) ، والمهم أن تعرف أن منهج الكتاب تاريخى ، ولو ان ذلك لا يعنى أنه تحقيق تاريخى مثلا ، أو مرجع تاريخى للمسرح ، أو نحو ذلك ، ولكنه نظرة للمسرح اليابانى من خلال تاريخه ، ومع انها نظرة سريعة الا انها شاملة ، واقل ما يقال فيها انها تعطيك بدايات تصلح للمتابعة والتعميق والاستطراد وراءها كلما اردت زيادة التثبت والتحقيق .

فأنت تسمع فى رقصة كاجورا مثلا ان او الى (الجيجاكو) أو الى (كاجورا) الخ ... الفاظ كثيرة جدا من هذا القبيل يذكرها المؤلف ، ومن سياق كلامه عنها تأخذ فكرة عنها ، ولكنك فى نفس الوقت تشعر بأنك فى حاجة الى الاستزادة .

فمثلا حين يتحدث عن (الكوجيكى) يعرفك بأنه سجل الاحوال القديمة ، وأنه كتب عام ٧١٢ م ، وبأنه يعتبر الأصل الروحى الطبيعى لكل أنواع العروض المسرحية اليابانية ، وبأنه يتحدث عن الشعب اليابانى فى عصور ما قبل التاريخ فى حكايات كثيرة عن آلهة متعددة فى سلسلة الميثولوجيا اليابانية ، وفعلا يروى لك حكاية بالذات وهذه الحكاية تتحدث عن آلهة الشمس (اما تيرازو أو ميكامى) ... الخ ...

ولقد كنت ارجو ان يحدثنا المترجم او المراجع عن اسباب اختيار هذه الحكاية ، والنص على انها اختيرت « بالذات » .. فان المؤلف يرويها فى سطور قليلة ، ثم يقول : (هذه الأسطورة لها دلالة عميقة ....) وانا شخصيا قرأتها عدة مرات ، ولكن لم أستطع الوصول الى عمق هذه الدلالة ... أيضا يقول المؤلف انها تشمل ثلاث صور رئيسية من صور فن المسرح اليابانى ، وهى العنصر العقائدى الخيالى ، والعنصر السخرى ، وعنصر الرقص ... وانا شخصيا لم استطع رؤية هذه الصور من خلال الأسطورة التى رواها المؤلف ... فاما أنه رواها بتفصيل وافاضة ثم اختصرها المترجم ، واما انها من الشهرة بحيث يعرفها الناس جميعا ما عدا انا !! وفى جميع الاحوال كنت افضل ان تشرح بحيث يمكن اللحاق بالمؤلف وهو يستطرد بعدها الى احكام فنية محدودة ، والى اصطلاحات فنية ذكرها واستند اليها فى ذكر هذه الأحكام .

بعد ذلك يتناول المؤلف انواع الرقصات اليابانية القديمة ، لاعطاء فكرة عنها ، وطبعا من المهم فى دراسة المسرح اليابانى معرفة هذه الرقصات ولكن الملحوظ ان المؤلف انتقل اليها قافزا ، أى قبل ان يستوفى الكلام عن الأساطير .. وبديهى انه لا يكفى فى هذا المجال ذكر اسطورة واحدة ايا كانت قيمة هذه الأسطورة ، وكان من اللازم ان يستكمل المؤلف ، أو المراجع هذه الفجوات التى تزداد اتساعا كلما سمعت تفاصيل كل رقصة ..

فأنت تسمع فى رقصة كاجورا مثلا ان راقصيها يعتبرون من سلالة الآلهة (أوزومى) ويتمتعون بلقب (سارومى ـ نو ـ كيمى) ،

دون أن تسمع اى شرح لهذه الالفاظ ، وطبعا يستحيل أن تفهمها تلقائيا ... اذن فما جدوى ترجمة كتاب عن المسرح اليابانى بالفاظ لا يعرفها الا من يعرف اللغة اليابانية ؟ !

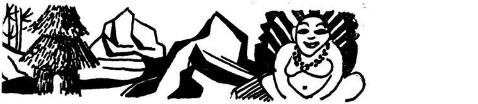
خذ مثلا آخر فى رقصة أخرى مثل (الجيجاكو) ... ان المؤلف يحدثك فيها عن عدة تشكيلات مرت بها ، ولكن يستحيل أن تتصور هذه التشكيلات ، لأنه يقول لك ــ مثلا ــ انها نوع من الرقص الدرامى خرج عن نوع من الرقصات التى تؤدى أمام تماثيل الآله (بوذا) فى الهند ، ثم اعيد تشكيلها فى صورة فنية أوسع نطاقا تعرف بال (جو) فى جنوب الصين، كما تعرف فى اليابانية باسم (كبور) ثم وصلت الى كوريا حيث تغير شكلها مرة أخرى .. الخ .

كل هذا طبعا دون أن تعرف ما مدى هذا التغير فى شكلها ، بل ما هو شكلها اصلا سواء فى الصين أو كوريا أو اليابان ... والطريف أن المؤلف يريد تقريب هذا الشكل الى ذهنك ، فيقول لك ان أجدر أشكال رقصة الجيجاكو بالاشارة هى رقصة (شيشى ماى) !! وبديهى أنه كان من اللازم الا يتركك المترجم أو المراجع حائرا بين جيجاكو وشيشى ماى .

ولا جدال فى أن المعلومات التى ذكرها المؤلف عن هذه الرقصات معلومات يندر أن يهتدى الى معرفتها ، وخاصة أن المؤلف لم يذكر فى كتابه أى مرجع من المراجع التى استعان بها ، ولكن رغم ذلك ــ بل من أجل ذلك ــ كان الأفضل استكمال الكتاب بهوامش تشرح ألفاظه الغريبة علينا ، سواء خلال الصفحات أو فى النهاية لتزداد الافادة ... أما أن يتركنا المؤلف حائرين بين الفاظ كالطلاسم ، ثم يتركنا المترجم والمراجع ، فهذا هو ما يثير الدهشة .

وتزداد الدهشة عندما يتعرض الكتاب لفن (النوه) ... انه يسميه (المسرح الغنائى الكلاسيكى فى اليابان) ، وكان يجب بهذا الوصف أن يزداد اهتماما بشرح تفاصيله ودقائقه ، لأنه اذا كان للرقصات السالفة الذكر قيمة تاريخية اكثر منها قيمة فنية ، فان للنوه قيمة كبيرة جدا بالنسبة لنا ، لأننا مهتمون بمحاولة انشاء





مسرح غنائى ، ويهمنا بالطبع ان تعرف كيف نشأ فى بلاد العالم ...

ومن حسن الحظ ان المؤلف افاض فى هذه الناحية وقدم لنا معلومات غزيرة عن (النوه) ، وكيف تطور ، وكيف انتشر ، وكيف يعتبر — الآن — اقدم العمد فى فنون المسرح ، لدرجة انه — كما قال المؤلف ص ٢٠ — يمثل بالنسبة لكثير من ابناء الغرب كل المسرح اليابانى او على الأقل أحسن ما فيه .

ولقد عنى المؤلف بشرح كلمة النوه ، وانواع مسرحيات النوه ، وتقسيماتها ، وكيفية عرضها ، وقواعد البناء الفنى فيها ، والخطوط الخارجية لها ، واسباب تشابه هذه الخطوط ، وما هو دور الممثل ، ومدى الارتباط بالوضع الدرامى ، ومعلومات كثيرة طريفة ومفيدة عن الكورس والديكور ... الخ .. وبعد أن يذكر ذلك كله يلخص التخطيط الأساسى المألوف لكل مسرحيات النوه ، ثم يذكر المدارس الفنية التى استقر فيها هذا الفن ، وهى خمس مدارس اساسية ، بالاضافة الى مدرسة سادسة نشأت فى آخر القرن الماضى وتضخمت ، ونتيجة لذلك اختفت المدارس الخمس الأخرى ، ثم عادت مرة اخرى الى الظهور ، ولا يزال الصراع بين هذه المدارس دائرا الى الآن .

واضح — مرة اخرى — ان الكتاب يقدم فى هذه النواحى معلومات فى غاية الفزارة ، ومع ذلك تشعر بأنه يحدثك عن شىء غريب من الجائز أن تعرفه أو الا تعرفه .. وهذا غير صحيح .. فان معرفة مثل هذه المعلومات ضرورة ، وكان من الممكن ان نشعر بهذه الضرورة لو ان المترجم أو المراجع او اى شخص آخر نظر الى الموضوع نظرة مقارنة او نظرة فيها قصد الاستفادة بها فى مسرحنا .

لم يحدث هذا ، وكل ما حدث هو تقديم كتاب عن مسرح فى بلد آخر .. وكان الأفضل لو اننا شعرنا بأنهذا الكتاب لا يساعدنافقط على معرفة ذلك المسرح ، بل يساعدنا ايضا على زيادة وتعميق معلوماتنا المسرحية عن مسرحنا ، أى عن التفكير المسرحى نفسه .

نفس الملاحظات توجه الى الفصل الذى تناول (الفواصل الفكاهية) ، بل ان لهذه الفواصل اهمية كبرى ، أولا لأن معظم مؤلفية كانوا من عامة الشعب الذين يكتبون للجمهور العادى ، وثانيا للأهمية التاريخية ، باعتبار انه اول شكل مسرحى فى اليابان ينقد المجتمع ، بعكس (النوه) المذعن المستسلم .

ان الكتاب ذكر هذه المعلومات ، ولكنه لم يقيمها فنيا ، ولم يستخدم فى ذكرها الأسلوب المقارن ... وكان من الضرورى استخدام هذا الاسلوب المفيد لنا فى كل هذه الأنواع الفنية بصفة عامة ، وبالتحديد عندما تناول الفنون التى لها أشباه عندنا ، كما هو الحال فى (الرواية القصصية الموسيقية) و (الجو رورى) ومسرح العرائس ... الخ .

والواقع ان المؤلف افاض فى الحديث عن مسرح العرائس واهتم اهتماما واضحا بالناحية التاريخية ، وقدم طرائف كثيرة خلال تاريخ هذا الفن ، وكيف ومتى تحركت العرائس ، بل كيف ومتى تحركت رموش عيونها ثم أصابعها .. الخ .

ولما كان تاريخ مسرح العرائس وتاريخ مسرح الكابوكى — كما يقول المؤلف — لا يكاد



احدهما ينفصل عن الآخر ، ولما كان مسرح الكابوكى قد انتحل لنفسه كل برامج العرائس ، فان المؤلف تناول بالتفصيل مسرحيات البونراكو باعتبارها جزءا من مسرح الكابوكى .

والمؤلف يهتم فعلا بشرح (كابوكى ــ مسرح اليابان الشعبى) اهتماما واضحا ، وهو عندما يفسر معنى كلمة كابوكى يقدم لتفسيراته بمقدمة تاريخية يذكر فيها المقاطع الصوتية للفظ ومعناه والتطورات التى مر بها وتغيرت مدلولاته بتغيرها ، ثم يتناول ارتباطه بالرقص ومعناه اللغوى ، ويخلص من ذلك الى ذكر المعانى المختلفة .

ثم يتحدث عن (كابوكى ــ أو كونى) ثم كابوكى المراة والمجتمع ، ويتناول أيضا المعانى المتدهورة التى وصف بها أحيانا ، واسباب ذلك .. والمهم انه يشرح هذه المسائل شرحا تطبيقيا ، عن طريق التطبيق على مسرحيات معينة ، أو عن طريق استخلاص المدلولات من مسرحيات معينة .

ثم ينتقل الى كابوكى الرجال (يارو كابوكى) وهو ــ كما يقول المؤلف ــ الأصل الحقيقى لمسرح الكابوكى كما نراه فى هذه الايام ..

وكما راينا المؤلف يستخدم الشرح التطبيقى فى معظم تفاصيل الفصل الماضى ، وهذه ناحية مهمة ، نراه يستخدم الشرح المرتبط بالحالة الاجتماعية فى الفصل الذى يتحدث فيه عن (كابوكى الجيزوكو) .. وهذا اتجاه مهم جدا فى التأليف .

انه يقدم لك تفسيرات واعية منذ ان ينحو هذا النحو ، ولهذا نلمس مدى تأثر الفن باختلاف الطبقات والاقتصاديات .. ايضا نراه يقارن بين عصر الجيزوكو وعصر النهضة فى أوروبا ، فهو مثلا يقول (ان الشبه الوحيد بينهما هو ارتفاع مستوى التعليم ، فقد بدأ عامة الشعب يدرسون الآداب الكلاسيكية للغتين الصينية واليابانية ، الجماهير لم تبحث الا عن أن تريح احاسيسها وان كان انتشار البوذية والكونفو شيوسية فى اليابان ذلك الانتشار الكبير سببا فى أن الجماهير لم تخض فى مجالات بعيدة للمعرفة كما انه لم يكن هناك تطور فى العلوم والفلسفة ، ولا حتى فى الروح الثورية لطرح القيود الموجودة) .

اننا نلمس هنا مدى وعى المؤلف وهو يربط بين الحركات الفنية والحركات الاقتصادية ومستوى الثقافة ، ولكنه مع ذلك يفاجئنا بتفسيرات عجيبة ... مثال ذلك انه يقول ان (الجيزوكو) كان عصرا عادت فيه مشاعر الجماهير اللاواعية العمياء الى الظهور فى النقلة الاقتصادية الجديدة للدولة ، وكان المواطنون يملكون قوة حقيقية ، ولكنهم كانوا بعدين عن التفكير فى الصراع الطبقى ، وبدلا من الثورة فان الجماهير لم تبحث الا عن أن تريح احاسيسها ومشاعرها فى احياء المتعة ، وفى المسارح التى يصبح فيها العامة وطبقة الساموراى على مستوى واحد .



ان المؤلف يقدم لنا هذه الآراء التى لم يبرهن عليها ، والتى تحمل فى ذاتها مدى تناقضها ، لمجرد أن يصل الى وجه الاختلاف بين (الجيزوكو) وعصر النهضة فى أوروبا ، دون أى ضرورة ، ودون أى اقناع أيضا .

بل بالعكس انه حينما يذكر ان مولد « فن الشعب » هو المظهر الرائع الوحيد لعصر الجيزوكو فانما يؤكد تناقضه ، لأن فن الشعب ـ اى شعب ـ لا يمكن أن يولد اذا كانت الجماهير غير واعية بواقعها، أو اذاكانت لا تفكر الا فى اراحة أحاسيسها بالمتعة .

على أن المؤلف يعود فيتحـــدث عن يقظة الشعب ووعيه ومقاومته للطبقة الارستقراطية المتمثلة فى « الســـاموراى » ، ولهذا وجهت الاتهامات الى كبار الأدباء والفنانين الذين كانوا يعبرون عن رغبة الشعب فى التحرر من العبودية ومن سيطرة الساموراى ، ولهذا اتخذت الطبقة الحاكمة الأرستقراطية اجراءات تعسفية ضد المسارح ، ومنها اجراءات تثير الضحك ، ومن أمثلة ذلك انها منعت المســـارح من أن تكون لها



سقوف تغطيها ، كما منعت اعداد الكبائن الخاصة على جانبى خشبة المسرح ، ومنعت الزبائن من مشاهدة الممثلين شخصيا ، وكانت هذه الاجراءات نتيجة مباشرة لحدوث فضيحة ، حدثت بسبب أن احدى سيدات البلاط عشقت ممثلا وسيما من ممثلى (الكابوكى) .

ومن نتـائج النظرة المقارنة التى استخدمها المؤلف استطاع أن يلفت نظرنا الى مؤلف مسرحى لامع ، وهو (شيكاما تسومو نزايمون) الذى ولد عام ١٦٥٣ ومات عام ١٧٢٥ ، ويعتبر المع مؤلف فى عصر الجيزوكو ، بل يعتبر شكسبير اليـــابان .... ومن مزاياه الفنية انه اختار شخصياته المسرحية فى معظم رواياته من مختلف قطاعات الحياة ، ومن مزاياه ايضا أن مسرحياته تنتصر فيها شخصية الرجل العادى دائما على شخصيات الطبقة الأرستقراطية (السـاموراى) وكما انه مجد الرجل العادى فقد خفض من القيم الانســـــانية للارســـــتقراطيين ، بل انه اعتبر الامبراطور انسانا كسائر البشر ، بينما كانوا يعتبرون منزهين ومقدسين ... لقد كتب ٣٣ مسرحية ظهرت فى خلالها شخصية الامبراطور كرجل عادى يعـانى ما يعانيه البشر ، ويواجه متاعب بنى البشر .

ومن مزاياه أيضا انه ـ كما يقول المؤلف ـ



أول كاتب مسرحى فى اليــــابان ينقل الأحداث الحقيقيـــة للعصر الى المسرح ، حيث جعل منه نوعا من الصحافة الحية فى خـــدمة الجماهير الأمية .. وتعتبر مسرحياته العائلية صورا حية لليابان فى عصر الجيزوكو بكل مشاكله وافراحه وما كان يدور فيه .

والمؤلف يزيدنا معلومات وهو يتحـدث عن هـــذا المؤلف ، بل انه يلقى الضوء على جوانب عظمته من خلال الحديث عن انتاجه ، وطبعا هذا من أفضل طرق التقييم .

ولـكنه فى نفس الوقت يترك تشبـــيهه بشكسبير بلا أى تعليق ... هذه نقطة كان من المهم أن يشبعها بالبحث ، لأننا نجد من متابعة المسرحيات كما سردها أو على الأصـح سرد موضوعاتها وأفـكارها ، أن هذا التشبيه فيه شىء من التسرع ، وربما كان المقصود هو انه افضل مؤلفى المسرح اليـــابانى ، ولهذا يسمى شكسبير اليابان قياسا على شكسبير ... ومع ذلك ، ومهما استطردت بنا التفسيرات فان هذه فرصــــــة للبحث الفنى ، واذا كان المؤلف لم ينتهزها ، فقد كان الأحرى بالمترجم أو المراجع انتهازها ، لأن المقصود هو اغناء مكتبتنا العربية بالمواد الفنية .

والكتاب ملىء بفجوات كثيرة من هذا القبيل فيه فرص كثيرة للبحث والدراسة والتحليل والمقارنة ، ولكنها مرت دون أن ينتهزها أحد .

والواقع انه فى مثل هذه الكتب لا يكفى أن نترجمها ، وأن نقدم لها بمقدمات مقتضبة ... بل يجب أن نراعى تقريبها الى الأذهان تقريبا منهجيا يزيد فائدة ترجمتها ... فمثلا كتاب المسرح اليابانى هذا يفيدنا التعمق فيه فقط .. أى أن مجرد ترجمته لا تفيدنا الا اذا تأملنا



المعلومات التى جاءت فيه ، وبذلك تستفيد فعلا .

انجوشوا لوجان المخرج السينمائى الأمريكى الذى كتب مقدمة هذا الكتاب أشار الى نقطة هامة جدا فى مقدمته الصغيرة حينما قال : ان هناك حوائط كثيرة تفصل بين الشرق والغرب ، لغاتنا ، موسيقانا ، وصورنا ، وسوف يتطلب منا الأمر عناية كبيرة ودراسة دقيقة لكى نجتاز هذه الحوائط .. »

والحقيقة اننا أحوج منهم الى هذه العناية والدراسة ... اننا نرى فى كتاب المسرح اليابانى ما يؤكد ان الشرق عرف منذ القدم تشكيلات وطقوسا وأساطير وأخيلة كانت كفيلة بخلق فن المسرح فى الشرق ، واذن فلماذا احتجب تفكيرنا المسرحى عن الظهور الفعلى الى أن نقلنا المسرح عن الغرب ؟ .

كنت أفضل لو أن المترجم أو المراجع أو أى شخص آخر اشترك فى تقديم هذا الكتاب على هذا الأساس ، أى على أساس دراسة علاقة مادته بمعرفة أسرار الفن المسرحى .

ان المؤلف أعطانا مادة غنية وصالحة جدا للبحث أو لاستكمال البحث فهو لم يقف عند حد سرد معلومات عن تاريخ المسرح اليابانى ، بل انه حاول أن يتتبع تأثير التفكير المسرحى القديم فى المسرح الحديث ، وعلى الرغم من انه تمهل كثيرا عند التفصيلات الجزئية بلا مبرر ، فانه سار فى طريق منهجى حتى وصل الى العصر الحديث ... فمثلا نحن نراه يتمهل عند شرح الفلسفة الجمالية فى الكابوكى ، ويقف عند اللون ، ويربط ذلك بغلبة التلوين والزخرفة فى عصر الجيزوكو ، ويستطرد الى ذكر الوان الستارة المسرحية وفخامة الملابس والمناظر والماكياج ، ثم بعد ذلك نراه يتمهل عند شرح الحركة وارتباطها بالرقص ، ولا بأس بذلك كله لولا انه فى تمهله وتوقفه ينسى الربط بين اللون والحركة ، ويتعرض لكل منهما على حدة ولا يتعرض لأثرهما فى تكييف النصوص المسرحية ، أو بالأحرى لا يذكر أمثلة تطبيقية ...

ولقد كنت أتوقع أن يناقش ذلك عندما تحدث عن التمثيل الصامت فى الكابوكى والعرض الصامت ، ولكنه اكتفى بقوله ـ مثلا ـ ان العروض الصامتة لا معنى لها أكثر من مجرد جمال حركاتها وايماءاتها ، مع انه تناقض مع نفسه حينما ذكر بعد ذلك مباشرة ان الممثلين يبقون ثابتين فى أوضاعهم بصورة تشبه



التابلوهات الحية فى السيرك ، وحينما ذكر أيضا أن البعض يرى فى الاستحسان الخالص لهذا النوع من الكابوكى دليلا على خطأ الحكم عليه ، فالأوضاع الخيالية للممثلين خلال المسرحية تندرج تحت « الصور الحية » ورغم أن صلاتها بالدراما كما يراها الغربيون قد تبدو بعيدة تماما ، فان الهدف من ورائها بالنسبة لليابانيين على جانب كبير من الأهمية واللياقة كأسلوب ضرورى من أساليب المسرح يضمه الأسلوب الأكبر لمسرح الكابوكى ككل .

هذه الأفكار التى ذكرها المؤلف جديرة بأن

تناقش لو شئنا الاستفادة الحقيقية من ترجمة مثل هذه الكتب ... وانا ارى ان يكلف واحد او اكثر من المتخصصين بتحمل المسئولية عن ذلك فى كل كتاب من هذا النوع .. ان افتقار هذا الكتاب الى « شارح » يشرحه ويقربه الى الأذهان كما ينبغى ، قلل فرصة الانتفاع به ، واشاع الغموض فى بعض ابوابه .

ومع ذلك كله فلا جدال فى ان هذا الكتاب ألقى اضواء كثيرة على مسرح كان مجهولا لدينا ، رغم قربه من بيئتنا الفكرية والوجدانية احيانا .. وانى اتمنى ان يستكمل النقاد والمفكرون ما فات المترجم والمراجع .. فمن الواجب ان يتصدى له المتخصصون لمناقشة دقائقه وتحليلها بحيث تزداد الأضواء عليه ، وبحيث يزداد اقترابة الى الأذهان ، وبذلك تزداد فائدته .

مسألة أخرى : ان الكتاب قدم فى نهايته ثلاث مسرحيات من مسرحيات الكابوكى ، فما المانع من محاولة عرض هذه المسرحيات فى مسرح الجيب مثلا ؟! ان عرضها ربما يزيد فرصة فهمها فهما تطبيقيا يستفاد فيه بما جاء فى هذا الكتاب ... على العموم هو كتاب مفيد ، وهو زاد جديد يقدم الى المكتبة العربية الفقيرة جدا .

عبد الفتاح البارودى

سطور من كتاب

عهد ومنهاج

« ان الأمل الحقيقى هو فى استمرار النضال . ويتأكد الاستمرار حين يكون هناك – فى كل وقت – جيل جديد على استعداد للقيادة ، ولحمل الأمانة ، ومواصلة التقدم بهـا ..

أكثر وعيا من جيل سبق ، أكثر صلابة من جيل سبق ، أكثر طموحا من جيل سبق .

وينبغى ان ندرك ان التمهيد لهـذا الجيل واجبنا ، واننا نستطيع – بالتعالى والجمود – ان نصده ونعقده . وبالتالى نعرقل تقدمه ، وتقدم امتنا .

ان علينا – بالصبر – ان نستكشفه دون ان نفرض عليه ولا وصاية . وعلينا – بالفهم – ان نقدم له تجاربنا دون ان نقمع حقه فى تجربته الذاتية . وعلينا – فى رضا – ان نفسح الطريق له دون انانية تتصور – غرورا – انها قادرة على شد وثاق المستقبل باغلال الحاضر . وعلينا ان نتيح له بفكره الحر ان يستكشف عصره دون ان نفرض عليه – قسرا – ان ينظر الى عالمه بعيون الماضى .

واذا تأخر وصول هـذا الجيل الجديد الى موقع القيادة ، او اذا وصل هـذا الجيل باقل من الاستعداد المطلوب للمهمة الكبرى ، فسوف تكون هـذه مسئولية جيلنا الذى يسجل على نفسه انه عرف كيف يبدأ ، ولم يعرف كيف ينتهى .

واذا كنت على صواب فى تشخيص هذا الهدف الاول للمرحلة القادمة فلسوف يكون موضع فخر واعتزاز لى ان اساهم بنصيبى فى تحقيقـه ، خصوصا واننى ارى – راى العين – ان الجيل ، الذى نضج تحت نيران المعارك السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية ، يخطو الآن فى قرب مواقع قيادة النضال .

ولسوف يكون تقدم هذا الجيل الى مكانه الطبيعى والشرعى تحقيقا لأكبر آمالى .

لقد كان شرفا لى ان أحمل العلم . لكنى ، امامكم ، اؤكد ان الشرف الأكبر لى يكون يوم أسلم العلم الى طلائع جيلنا الجديد » .

المختطف



قليل من الكتاب من حظوا بشهرة فى حياتهم تقربهم من قلوب الصغار خاصة والناس عموما كتلك الشهرة التى حظى بها روبرت لويس ستيفنسن .

ويزيد من جمال هذه الحظوة ذلك الكفاح النبيل الذى اتسمت به حياة هذا الكاتب الشاعر ضد العلة الثقيلة التى منى بها منذ العام الثالث من عمره ، فكان لا يكاد يمر عليه شهر كامل من غير ان يلازم الفراش . ومع هذا ظلت روحه مرحة وثابة تفيض بحب الحياة ، وحب الناس ، والاقبال على المغامرة ، حتى لقد استطاع هذا العليل ان يقدم لابناء زمنه ومن بعدهم رصيدا ضخما من اعمال المغامرة والشجاعة وضروب الاقدام والبطولة يعجز عن بعضه أصح الاصحاء .

وقد يقال انه منطق التعويض . ولكن التعويض ليس لزاما ان يكون فى اتجاه محدد مشرق انيس . فالمعول فى ذلك الاتجاه على الروح الشاعرة والاستعداد الفنى والموهبة الخلاقة . وتلك كانت سمات ستيفنسن .

ولد روبرت لويس ستيفنسن لأب كان مهندس موان ومنائر ، توارث هذه المهنة عن اسلاف له فى سلسلة متصلة فى اسكتلندة . وكان مولد روبرت فى ادنبره فى اليوم الثالث عشر من نوفمبر سنة ١٨٥٠ . وهذا الشهر أشد شهور السنة كآبة فى ايقوسيا ، ولكن قلب الوليد الصغير طبع على الاشراق والحنان الدافىء ، كأنما حبته الطبيعة فى فؤاده بكل ما حرمت منه يوم مولده

وتلقى روبرت عن أمه ميراث الرقة وعذوبة الطبع ورقة المشاعر والدماثة . اما عن ابيه المهندس فتلقى ميراث حب النظام وعشق الجمال

الناشر : مشروع الألف كتاب - بالاشتراك مع مؤسسة سجل العرب
٣٩٠ ص ١٧ × ٢٤ سم الثمن ٣٣٫٥ قرشا

تأليف : روبرت لويس ستيفنسن
ترجمة : مراد الزمر
مراجعة : مصطفى حبيب

الفنى ومن المفارقات ان حب الفن الذى ورثه عن ابيه هو الذى افضى به فى النهاية الى الخروج على طاعة ابيه فنبذ حرفة اسرته وهى الهندسة ليكون مهندسا بالكلمة المكتوبة : شاعرا وروائيا .

وفى باكورة العام الثالث من عمره اصيب روبرت الصغير بنازلة « خناق » — بعد عيد ميلاده الثانى بأيام قلائل — ولم ينج منها الا بعد عناء اعقب سلسلة من العلل فى التنفس واجهزته ، فكتب عليه ان يقضى أياما كثيرة من كل سنة من سنوات عمره طريح الفراش لأقل نوبة برد تتحول الى نزلة شعبية أو التهاب رئوى . ولم يكن الطب العلاجى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر قد حقق نصيبا مذكورا من التقدم ازاء هذه الامراض التى كانت تودى بحياة الكثيرين ، لولا العناية المفرطة التى كان أهل روبرت يبذلونها لوقايته ونقاهته .

ولكن هذه المحن الجسدية لم تنل من عذوبة روح روبرت الصغير ، فظل على الدوام دمثا باش المحيا رضى النفس . ولئن اعجزه ان يلهو ويشارك اترابه ولداته فى العابهم ، فقد اتخذ من عدة الخيال نظير ما اتخذه شاعر المعرة العظيم ابو العلاء حين استعاض عن قعود الدار برحلة لم تتسع لها الدنيا على رحبها ، فطوف بالحياة الأخرى على جناح من الخيال المتوقد الخلاق .

ولست أعنى هنا التشابه بين الرجلين فى القيمة الفنية — حاشاى ! — بل أعنى فحسب التشابه فى السلوك النفسى المعوض . فالصبى روبرت طريح الفراش وحبيس المخدع يبتدع فنونا جديدة من الألعاب التى يؤديها وحده فى « دنيا اللحاف » كما كان يسميها ، وهى دنيا منبسطة البطاح والربى والغابات والبحار فوق غطاء فراشه . وقد خلد — فيما بعد — دنياه تلك بهذا الاسم فى قصائد من أشهر أشعاره .

وكان اكبر التأثير على تكوينه الخلقى والعقلى والنفسى فى تلك الحقبة — بعد تأثير والدته — لمربيته اليسون كننجهام التى كانت تتخير له ما تطالعه له من الاقاصيص حريصة كل الحرص على تجنيبه ما من شأنه ان يفسد تفكيره المتطلع الشديد الاستيعاب المتوقد التصورات .

وقرب نهاية سنة ١٨٥٦ — اى وهو فى تمام السادسة — سنحت أول فرصة لروبرت كى يغدو مؤلفا ، وذلك حين وضع عم له جائزة لشباب الاسرة وايفاعها لأحسن تاريخ عن النبى موسى . وكان روبرت مريضا فسمح له باملاء الموضوع على والدته ، وظفر بجائزة خاصة لجهوده المضاعفة . فكانت هذه الجائزة المبكرة سببا فى الهاب طموحه الى التأليف ولم يكف بعدها عن محاولات الكتابة . ولما ذهب الى المدرسة اصدر فيها جملة صحف مدرسية ، وكلها تحمل طابع المغامرة الجريئة والخيال الجامح المطمح الجسور والمواقف الخطرة المخيفة .

وفى سن السادسة عشرة طبع أول عمل له ولكن اباه جمعه من المطبعة واحرقه حتى لا ينصرف الفتى عن الدرس . وعنوان هذا العمل « ثورة بنتلاند : صفحة من التاريخ سنة ١٦٦٦ » واصر ابوه على ان يتخرج ابنه مهندسا للموانى والمنائر فقضى روبرت مدة الدراسة فى جامعة ادنبرة ، حيث حصل على درجة جامعية فى العلوم ، وطاف فى العطلات بالورش على طول الساحل للتدريب العملى . ولكنه فى سنة ١٨٦١ — بعيد تخرجه — اعلن لوالده عزمه على احتراف التأليف فوجهه ابوه الى حل وسط هو احتراف المحاماة لتكون عمادا رسمياله الى جانب هذه المهنة الادبية المشكوك فى جدواها . وسلك روبرت هذا السبيل وعمل فى مكتب للمحاماة فترة كانت كافية لتبغيض الأعمال المكتبية اليه مدى العمر ، وهو الشغوف بحياة الخلاء .

وقضى روبرت بعض رحلاته فى المانيا حيث عبر الغابة السوداء على قدمية ، وخرج على الناس بعد ذلك بكتاب ممتع هو « رحلات مع حمار » ! ...

وبعد برهة من المرض المضنى اعلن الاطباء قرارهم الخطير : انه يجب ان يتبع مدار الشمس ،

وان يتجه فى اسفاره ومقامه الى الجنوب ... جنوب فرنسا على الأقل . ومنذ ذلك الحين اضحى روبرت لويس ستيفنسن جوالة دائم الترحال عن موطنه ، وهكذا ظل حتى سنة ١٨٧٨ يتنقل بين فرنسا ولندن ، وشرع يكتب قصصه مسلسلات فى المجلات ، واهمها « الف ليلة وليلة جديدة » وسرعان ما ذاعت شهرته فى الاوساط الأدبية وتوطد مستقبله فى التأليف . وابحر فى اغسطس سنة ١٨٧٩ الى امريكا حيث اقام فى كاليفورنيا ذات الجو الدافىء الساحر ، وحيث التقى بسيدة أمريكية هى مسز ازبورن احبته اشد الحب وتزوجته ووقفت حياتها على رعاية صحته وانتاجه ، فوجد بذلك الصدر الحنون ، والملاذ العاطفى الذى باضت فيه موهبته وافرخت .

وخوفا على صدره الضعيف من خطر السل الداهم رحلا معا الى جزر الجنوب فى المحيط الهادى فى يونيه سنة ١٨٨٨ بعد رحلات الى الريفييرا وجبال الألب .

وفى هذه الجزر الجنوبية اقام له بيتا من الخشب على رابية وعاش بين الأهالى السمر فى حياة راضية قريرة ، يصلهم بحنانه ويصلونه بحبهم ، الى ان مات فجاة فى الثالث من ديسمبر سنة ١٨٩٤ ، وقد اتم من العمر اربعة واربعين عاما اسعد فيها كل من حوله بسجاياه العذاب ، واسعد ملايين القراء بقصصه الطريف الحافل بالخيال والمغامرة ، وبشعره السلس الرقراق .

وترجع قصته المختطف الى بداية عهده بالشهرة المستفيضة . تلك الشهرة التى امتدت بسرعة البرق على اثر قصته الشهيرة « جزيرة الكنز » فى سنة ١٨٨٣ ، فنشر بعدها قصة اخرى لم تزل شهرتها قائمة الى يومنا هذا ، واخرجتها السينما فى فيلم من أشهر الأفلام ، وهى قصة « دكتور چيكل ومستر هايد » التى تقوم على ازدواج الشخصية ، وصارت مثلا يضرب بين سواء الناس لذلك الازدواج ، وقدظهرت من المطبعة فى سنة ١٨٨٦ ، وفى هذه السنة نفسها ظهرت قصته « المختطف » التى نحن بصددها اليوم ، ولها تتمة فى قصة أخرى بمثابة حلقة ثانية لها هى « كاتريونا » لم تظهر الا فى سنة ١٨٩٣ قبل وفاته بعام واحد تقريبا .

والسمة الغالبة على اسلوبه القصصى هى بعينها السمة الغالبة على سلوكه ومزاجه الشخصيين ، وهو الانسياق — بل الاندفاع المنطلق — مع احلامه وخيالاته بحيث تغدو وقائع الحياة الجارية ومسئولياتنا ضئيلة غاية الضآلة ، فيطغى عالم التصور والايهام على الواقع الملموس ايما طغيان .

« والمختطف » مروية على لسان الفتى دافيد بلفور الذى مات عنه ابوه وتركه بلا سند فى الحياة ، فحمل رسالة تركها له والده الى شخص « ابنيزر » غريب الاطوار شحيح اتضح انه عمه ، وانه اغتصب بغير وجه حق ميراثه عن جده وهو مزرعة كبيرة . ولكن الفتى كان يجهل فى ذلك الحين كل هذه التفصيلات الى ان اكتشف جانبا منها بالحيلة والجراة ، فاحتال عمه حتى دبر اختطافه على ظهر سفينة شراعية حملته قسرا صوب كارولينا بأمريكا . وفى طريقها الى هناك التقطت « الن بيك » من زورق غارق ، وكان الن هذا يعقوبيا من الثوار الهاربين من السلطان . وارتطمت السفينة بعد مغامرات محرجة ومؤامرت من الربان والبحارة على شاطىء صخرى ، ونجا الن والفتى دافيد معا وراحا يشقيان طريقهما فى المنطقة المخيفة بين الصخور ، واذا بهما يشهدان معا مصرع « كولن كامبل » الملقب بالثعلب الأحمر وهو شخصية لها وجود تاريخى حقيقى نسخ المؤلف حول مصرعه هذه القصة المتشابكة . وانحصرت فيهما الشبهة فى مقتله ، وبعد مغامرات ومجاهدات رهيبة تمكنا من الفرار ممن يتعقبونهما للقصاص الظالم بين جبال اسكتلندا ، الى ان وصلا الى بر السلامة بعد اجتياز « الفورث » وتنتهى قصة المختطف بهزيمة ابنيزر واسترداد دافيد لحقوقه جميعا ،

وبذلك انتصرت الشجاعة وفاز الحق على الباطل وسوء التدبير ..

والسحر الخاص فى هذه الحكاية كلهـــا يكمن فى التفصيلات « المثيرة » للمغامرات والمآزق والاخطار بتلوين حى يستولى على المشـــاعر . فهو اذن ادب اثارة وادب مغامرة فى الدرجـــة الاولى . وهذه الخصائص تستلزم ســـمات خاصة فى اسلوب التعبير هى التى يتميز بهـــا روح روبرت لويس ستيفنسن وسحره .

والواقع ان المترجم الفاضل اســـتطاع فى نقله الدقيق الامين ان يبقى على الشىء الكثير من هذه السمـــات الســـاحرة التى كان يخشى عليها عند النقل من لغة الى لغة . وان كانت الامانة للحرفية ـ فى بعض الاحيان ـ تجـــور على المعانى المقصودة من حيث الروح . فالكلمة التى تعنى عند السؤال «لماذا» قد تأتى للتعجب أو للحيرة لا للاستفسار فى أول الكلام ، فيكون معناها اقرب الى قولنا « عجبا » او « وى » . او ما الى ذلك ، واذا ترجمناها « لماذا » فى موضع لا ينطوى على الاستفهام استغلقت على القارىء العربى . والحرص على روح الكلمة هنا أولى واحجى .

وهنة اخرى فى التعبير العربى على المستوى الادبى من قبيل « فسألنى عما اذا كنت قـــد تناولت طعام افطارى » وهى أسلوب أقرب الى تعبيرات الترجمة الصحفية وهو بها اشـــبه . والافضل ان يقال « فسألنى هل تناولت طعام افطارى » فيكون التعبير اقـــوم واسلس . ومن قبيل « الاسماك الصدفية التى عشت عليهـــا اكثر اهمية لى » فأفعل التفضيل فى اللغة العربية يغنينا عن هـــذه الصـــيغة المركبة التى توشى بالعجمة : « اكثر أهمية » . وهى ليست بالشىء العارض فى اسلوب المترجم ، فما اكثر ما يقول « اكثر عمقـــا » وكانت « أعمق » أوفى بالغاية واقـــرب لروح اللغة العربية .

وبمناسبة « اكثر عمقـــا » هذه نجـــدها وردت فى قوله : « ولكن الســـبب الآخر كان اكثر عمقـــا » ... والعمق هنا ليس المقصود بصورته المادية ، وانما توصـــف الاســـباب بالجدوى أو الوضوح او الخفاء او غير ذلك مما يوحى به سياق الكلام . ولعل المعنى الـــذى يقتضيه هنا « أبعـــد أثرا » لا « أعمق » .

وفيما عدا هذه الهنات التى كنا نود لمثـــل هذا الاثر الادبى ان يبرأ منها ، فالترجمة أمينة امانة متحـــرجة اشد التحـــرج ، ولا تخـــلو مواضع كثيرة فيها من نصاعة واشراق ينبيان عن رغبة صادقة فى التجويد ، فنرى المترجم (فى ص ٣٥٤ مثلا) يقول :

ـ لو انبأتك بقصـــتى كاملة فلا بد لى أن أضع حياة صديق لى فى طيات كتمانك ...

وهو تعبير بليغ الديباجة ، بيد انه يردفه فورا بقوله :

ـ .. « فأعطنى الوعـــد » بأن امره سيكون موضع سرك .

فاذا « اعطنى الوعـــد » هذه تهبط بمستوى التعبير البلاغى .

وما كان أغناه عن هذه الهجنة لو قـــال على السياق العربى القديم : « فعدنى » لأن الفعل العربى « وعـــد » ولا تقول العرب « اعطنى وعدا » كما يقول اصحاب بعض اللغات الاخرى .

ولكنها « مطبات » قليلة فى طريق معبـــد بذل صاحبه جهدا مشكورا فى توطئته للقارئين ..

د . نظمى لوقا

الموسوعة الفلسفية المختصرة

إشراف أرمسون

ترجمة { فؤاد كامل / جلال العشرى / عبد الرشيد الصادق

مراجعة : الدكتور زكى نجيب محمود

الناشر : مشروع الألف كتاب
بالاشتراك مع مكتبة الانجلو المصرية
٤١٧ ص قطع كبير ٢٨×٢٠ سم الثمن ١٢٠

ليس من شك فى ان تزايد الاهتمام بالدراسات الفلسفية فى مجتمعنا العربى هو الذى أوجد الحاجة الى معجم فلسفى شامل يحدد معانى المصطلحات الفلسفية ويعرف القارىء بأهم اعلام الفكر الفلسفى قديما وحديثا . وقد وقع اختيار السادة المترجمين على موسوعة فلسفية موجزة ظهرت باللغة الانجليزية منذ عدة سنوات ، فقاموا — مشكورين — بترجمتها الى لغتنا العربية، وحاولوا سد ما فيها من نقص ، فأضافوا الى موادها مقالات عديدة عن اشهر مفكرى العرب ، كتبها خصيصا للترجمة العربية الأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود . والموسوعة — بصورتها الحالية — تمثل جهداً علميا ضخما لا يملك المشتغلون بالدراسات الفلسفية عندنا سوى الاعتراف بقيمته والتنويه بفضل القائمين عليه، خصوصا وان الترجمة العربية قد جاءت واضحة، دقيقة ، امينة كل الأمانة للأصل الانجليزى .

ولا بد لنا من ان نشير — بادىء ذى بدء — الى السمات الخاصة التى اتسمت بها هذه الموسوعة المختصرة . فهى **أولا** موسوعة موجزة اشد الايجاز ، بدليل انها تغفل الكثير من المصطلحات الفنية التى قد يجدها القارىء المتخصص فى المعاجم الفلسفية المعروفة كمعجم اندرية لالاند A Lalande (مثلا) ، فضلا عن انها تستبعد من الفلاسفة من ليست أعمالهم ميسورة فى ترجمات انجليزية (حتى ولو كانوا

من المشهورين فى بلادهم) . ومحرر هذه الموسوعة يعترف بأنه يفهم « الفلسفة » بمعناها الغربى الكلاسيكى ، فهو يستبعد الفلسفة الشرقية التقليدية ، ويسقط من حسابه حكماء الهند والصين ومصر القديمة ومن اليهم . ثم هو يقرر أنه قد جعل الأولوية لحاجات القراء غير المتخصصين ، كما اقتصر على أقل عدد ممكن من المقالات عن كبار اعلام الفكر الفلسفى الغربى. والمحرر يفترض أيضا ان القارىء ليس لغويا خبيرا ، ولكنه يحاول أن يتجاوز حدود الاتجاهات الفلسفية البريطانية والأمريكية المعاصرة . واذن فان هذه الموسوعة لا تزعم أنها دليل شامل للفلسفة الحديثة ، ولكنها تحاول أن تعرفنا بأهم الأسماء اللامعة فى آفاق الفكر الغربى قديما وحديثا . وأما فيما يتعلق بالفلاسفة المعاصرين، فان الموسوعة لا تتناول من بينهم أولئك الذين ما زالت أعمالهم رهن التطور ، اللهم الا بصورة مختصرة لا تكشف عن كل ما لهم من قيمة (ص ٣) .

والسمة الثانية التى تتسم بها هذه الموسوعة أنها تتجنب المقالات التى تحاول الاجابة على مشكلات الفلسفة الكبرى بطريقة مباشرة ، لأنها تفترض أنه ليس فى ميدان الفلسفة اجابات متفق عليها ، وأن أية اجابة من هذا القبيل لا بد من أن تجىء متحيزة ، وبالتالى فانها لن تكون متلائمة مع محتويات الموسوعة .

ومن هنا فان كتاب المقالات المختلفة ــ فى هذه الموسوعة ــ قد قصروا اهتمامهم على شرح عدد غير قليل من المصطلحات الفنية التى يستخدمها الفلاسفة فى محاولاتهم الاجابة عن اهم المشكلات الفلسفية ، وعلى بسط الاجابات التى قدمها كبار الفلاسفة لأمثال تلك المسائل ، وعلى عرض بعض الطرق المتبعة فى محاولة الاجابة عنها . ومحرر الموسوعة يذكر القارىء فى المقدمة القيمة التى كتبها للموسوعة بأن عليه ان يزيد اطلاعه بنفسه ، وأن يبذل بنفسه مزيدا من التفكير « اذ لا يقتصر الأمر فى الفلسفة على ان ليس فيها اجابات متفق عليها ، بل ليس فيها ايضا من الأسناد ما يمكن أن يؤخذ مأخذ الفيصل الحاسم فى مواضع الخلاف . وعلى كل انسان فى نهاية الأمر ان يكون لنفسه رأيا فى مسائل الفلسفة حسب تقريرة لمختلف الحجج التى قد يصنعها له الآخرون لتكون منه موضع النظر . » (ص ٨) .

وأما السمة الثالثة التى تتميز بها هذه الموسوعة فهى انها سهلة واضحة ، لأن معظم الذين قبلوا المشاركة فيها قد كتبوا مقالاتهم بأبسط وأوضح عبارة تسمح بها مقتضيات الدقة . وعلى الرغم من ان المحرر يعترف بأن الفلسفة لم تكن يوما سهلة واضحة ، فانه ينص صراحة على ان الموسوعة قد جعلت الاعتبار الأول دائما أبدا للقارىء العادى غير المتخصص ، ومن ثم فانها قد حاولت تحاشى المشكلات الصعبة الغامضة ، كما انها قد راعت التزام السهولة والوضوح فى التعبير عن أعقد قضايا الفلسفة . ولكن المحرر يعود فيقرر انه قد يكون من المحال ومن العبث أن نحاول كتابة مقالة عن احد مناطقة العصور الوسطى مثلا ، بحيث تجىء فى بساطة المقالة الأساسية التى كتبت عن المنطق » (ص ٩) ... ومهما يكن من شىء ، فان من المؤكد ان « الموسوعة الفلسفية المختصرة » قد جاءت فى ترجمتها العربية مرجعا فلسفيا مفيدا للمتخصص وغير المتخصص ، خصوصا وأنها قد زودت القارىء بقائمة هامة يستطيع ان يجد فيها من الكتب ما يزيد به

اطلاعة في معظم المسائل الفلسفية الرئيسية ؛ هذا علاوة على ملاحق الموسوعة الخاصة بأسماء الأعلام ، وأسماء المذاهب ، وأسماء المؤلفات وأسماء الأساتذة المشتركين في الموسوعة .. الخ .

ولو أننا انتقلنا الآن الى دراسة أهم المقالات الواردة بالموسوعة ، لكان في وسعنا أن نقول بصفة عامة ان مستوى المقالات مختلف باختلاف الكتاب وان كان الملاحظ عموما أن مستوى المقالات الخاصة بالفلسفة المعاصرة ادنى بكثير من مستوى المقالات الاخرى . وربما كان من خيرة المواد الواردة بالموسوعة مادة « كانت » ، ومادة « هيوم » ، ومادة « منطق » ، ومادة : « نظرية المعرفة » ، ومادة « الوضعية المنطقية » ... الخ ، بينما تبدو مواد أخرى مثل مادة : « كيركجارد » ، ومادة « هوسرل » ، ومادة : « علم الظواهر » ، ومادة : « برديائيف » ، ومادة : « وجودية » ومادة : « مارسل » دون المستوى المطلوب . والظاهر أن معظم الأساتذة الذين اشتركوا في تحرير الموسوعة هم من أبناء العالم الأنجلو — ساكسوني ، ولهذا فقد جاءت دراساتهم للفكر الفلسفي في القارة الأوروبية (خصوصا الفكر الألماني والفكر الفرنسي) مشوبة بشيء من التحيز . وآية ذلك القارىء العربي الذي يجد في الموسوعة أسماء مفكرين انجليز وامريكيين مثل أوستن Austin وأوربان Urbin وبرتشارد Prichard وبرايس Price وبلانشارد Blanshard ، ودوكاس Ducasse ، وروس Ross ، ورايل Ryle ، ولويس Lewis ، وموريس Morris ، وولسون Wilson ، ووزدم Wisdom ، وهير Hare وغيرهم (من أساتذة الفلسفة بجامعات انجلترا وامريكا) ، لا يجد اية اشارة الى مفكرين أوروبيين اكثر منهم أهمية مثل ماكس شلر Max Scheler ومارتن بوبر Martin Buber ، وكيسر لينج Keyssrling وغيرهم من الالمان ، أو مثل موريس بلوندل M. Blondel وادوار ليروا Le Roy ، وليون برنشفيك L, Brunschwicg ، ولويس لافل L. Lavelle ، ورينيه لوسن R. Le Senne ، وباشلار Bachlard وغيرهم من الفرنسيين ، أو مثل أونامونو Unamuno واورتيجا اى جاست Ortega y Gasset من الاسبان ، أو مثل ڤاريسكو Vatisco ، ومارتينتي Martintti ، واليوتا Aliotte وغيرهم من الايطاليين ... الخ . وقد كان من الممكن تلافي هذا النقص باشتراك بعض الأساتذة الاجانب في تحرير الموسوعة ، بدلا من قصرها على الفكر البريطاني والأمريكي بهذه الصورة العنصرية المتحيزة . وعلى الرغم من أن محرر الموسوعة قد نص في المقدمة على ان الموسوعة تحاول أن تتجاوز حدود الاتجاهات الفلسفية البريطانية والأمريكية المعاصرة ، فان القارىء يلاحظ أن تعاطف كتاب الموسوعة مع الحركات الفلسفية المعاصرة خارج حدود موطنهم الأصلي ضعيف الى أقصى حد . وحسب القارىء مثلا أن يعود الى مقالات كتاب الموسوعة عن فلاسفة مثل هيدجر ، أو يسبرز ، أو هوسرل ، لكي يتحقق بنفسه من عجز أصحاب هذه المقالات عن النفاذ الى باطن فكر أمثال هؤلاء الفلاسفة المتازين ممن كان لهم أعمق الأثر على معظم الحركات الفلسفية المعاصرة .

ولا بأس من أن نورد — في هذا المقام — بعض ملاحظات عابرة عن بعض المواد التي اطلعنا عليها بالموسوعة ، خصوصا فيما يتعلق ببعض الفلاسفة المعاصرين من غير الأنجلو — ساكسونيين . ففي المقال المكتوب عن سارتر (مثلا) يشير الكاتب الى تحليل سارتر الممتاز للأخلاق الستالينية ، وينسب الى المفكر الفرنسي الكبير أنه صاحب كتاب « الانسانية والفزع » Humanisme et Terreu والصواب ان الكتاب للفيلسوف الفرنسي موريس ميرلو پونتي M. Merleau Ponty لا لسارتر كما ورد في الموسوعة (انظر ص ١٧٧ ، ص ٤٤٢) . والمترجم العربي لمادة : « سارتر » يترجم اسم كتاب ألبير كامي L' Homme Révlotè بكلمة : « الثائر » ، في حين أن كامي يضع « التمرد » في مقابل « الثورة » ، وبالتالي فان العنوان الحقيقي للكتاب هو « الانسان المتمرد » . وكاتب المقال المذكور يشير الى كتاب آخر لسارتر

بعنوان « الانســـان » على أنه وشيك الظهور ، وكان من الواجب على مترجم المقال الاشارة فى الهامش الى الكتاب الثانى الذى ظهر بالفعل لسارتر ، الا وهو كتاب « نقد العقل الجدلى » (الجزء الأول ، ١٩٦٠) ولسنا ندرى ما اذا كان سارتر لا زال يزمع اصدار كتاب عن «الانسان» ام لا ، وانما الذى نعلمه أن سارتر قد عدل من موقفه الوجودى السابق الذى كان قد عبر عنه فى كتاب « الوجود والعدم » ، فكان من الضرورى لمترجم مقال سارتر النص على هذا التحول الذى طرأ على التفكير السارترى . وقد أشار كاتب المقال الى تأثر سارتر بهيجل وكيركجارد ، ولم يشر الى تأثره بكل من هوسرل وهيدجر ، وكان من الواجب اظهار اهمية « المنهج الفنومنولوچى » فى تفكير سارتر ، خصوصا وأن سارتر نفسه قد أعلن بصراحة اعتناقه لهذا المنهج .

ولا يشير كاتب مادة : « مارسل » Gabriel Marcel الى اهميــــة المنهج الفنومنولوچى فى فلسفة هذا المفكر الفرنسى المسيحى ، بل يقتصر على القول بأن « تفكير مارسل مهلهل النسج، مشتت العرض » (ص ٢٨٨) . ولا يجد القارىء فى المقال المكتوب عن مارســـل أى عرض منظم لفلسفة مارسل ، سواء فيما يتعلق بمشــكلة المعرفة والوجود ، أم فيما يتعلق بمشكلة صلة الذات بمـــا عداها من ذوات ، أم فيما يتعلق بمســألة « التجسد » incarnation ، بل يجد مجــرد اشــارات عابرة الى تأثر مارســـل برويس وبرجسون ... ولسنا ندرى ما الذى يعنيه كاتب المقال حين يذكر أن مارسل « قـــد اهتم فى أعوامه الأخيرة اهتماما جـــديا بنتائج الظواهر النفسيةالشاذة ، وخاصة التخاطر حين يفهم على أنه طريقـــة من طرائق الاتصـــال بين الناس » (ص ٢٨٧) ، فان المطلع على تطور فكر مارسل يعلم أن اهتمــــامه بمشكلة التلبــــانى télépathie أو التراســـل الروحى يرجع الى الحرب العالميـــة ، فلا معنى لقول الكاتب « فى أعوامه الأخيرة » ، خصوصا وأن مارسل ما زال على قيد الحياة . هذا الى أن مارســـل ــ فيما نعلم ــ لم يقدم رســـالة دكتوراه ، فى حين أن حديث صاحب المقال عن موضوع رسالة مارسل للدكتوراه قد يوقع فى روع القارىء أن للفيلسوف الفرنسى الكبير رسالة مطبوعة عن « تصورات كولردج الفلسفية ... الخ » .

ويطالع القارىء المقال المكتوب بالموسوعة عن الفيلسوف الروسى برديائيف ، فيجد الكاتب يعد هذا المفكر الوجودى الكبير مجـــرد « مفكر دينى » أو داعيـــة من الدعـــاة الاجتمـــاعيين والسياسيين ، دون أن يهتم بالاشارة الى أسس موقفه الفلسفى الوجودى ، ونوع الاعتراضـــات التى وجههـــا الى الثورة الروسية ، وطبيعـــة عـــلاقاته الروحيــــــة بكل من كيركجـــارد ودوستويفسكى وغيرهمـــا ... الخ . والكاتب ينص على أن بردیائیف يفرق بين «عالم الحرية» و « عالم المادة » ، دون أن يشير بكلمـــة واحدة الى فهم بردیائیف للحرية ، أو تصوره للروح ، وكأن موقف بردیائیف مجرد تكرار لموقف كانت من « عالم الباطن » و « عالم الظاهر » . (انظـــر الموسوعة : ص ٩١) .

أما المقال المكتوب عن «هوسرل»اكثر مقالات الموسوعة غموضا وبعدا عن الدقة ، فضلا عن أن الترجمة العربية قد زادته سوءا وذلك بسبب صعوبة العثور على مقابل عربى دقيق للكثير من مصطلحات هوسرل الدقيقة . وحين يقول كاتب المقال (مثلا) : « ... أن الفيلسوف الباحث فى علم الظواهر « يخنق » كل ضرب من العقيدة الواقعية لكى تصبح « المركبات » التى يخلقها وعيه مقطوعا بصوابها عند العقل المتأمل ... » (ص ٣٩٣) ، فان القارىء لا يسعه سوى الاعتراف بعجزه عن فهم أمثال هذه العبارات ! وحين يكتب صاحب المقال ــ فى موضوع آخر ــ « أن ثمة أشياء كثيرة جديرة بالأعجاب فى مؤلفـــات هوسرل الأخيرة ، ولكنها ليست كثيرة جداً » ! (ص ٣٩٣) ، فان المرء يشعر انه هنا بازاء حكم تعسفى قد اطلقه صاحبه اطلاقا ، دون أن يقدم لنا من المسوغات أو البراهين ما يسند اليه مثل هذا الحكم ! ولا يفوتنا ان نشير ــ فى هذا الصدد ــ الى أن مترجم مقال « هوسرل » قد استعمل فى ترجمته بعض المصطلحات العربية ، بينما استخدم

مترجم مقال « علم الظواهر » مصطلحات عربية مختلفة ، فى حين ان الكلمات المترجمة واحدة فى الأصل الانجليزى . وكان من الواجب توحيد المصطلحات العربية قبل الشروع فى الترجمة ، حتى يعتاد القارىء استخدام ألفاظ واحدة بعينها للاشارة الى المعانى الفلسفية المشتركة .

ولسنا نريد ان نتوقف طويلا عند مقالات الموسوعة عن كل من هيدجر ياسبرز وهارتمان، فاننا نميل الى الظن بأن الباحث المنصف الذى قرأ لأمثال هؤلاء الفلاسفة فى لغتهم الأصلية لن يجد فى مقالات الموسوعة تضمينا صحيحا وعرضا أمينا لمذاهب هؤلاء الفلاسفة . ونحن على ثقة من أن القارىء العربى لن يفيد الكثير من قول الكاتب مثلا عن هيدجر انه « من الفلاسفة القلائل الذين تنطبق عليهم حكاية اندرسون الخرافية « ثياب الامبراطور » ! (ص ٤٠١) ، كما انه لن يفهم الكثير عن فلسفة يسبرز حين يجد الكاتب يقول : « ان استخفاف ياسبرز ... بكل مضمون يضع المشكلة الخاصة بمضامين كتاباته الضخمة ، فهى مليئة فى معظمها بتأويلات موغلة فى الذاتية عن المواقف المزعومة للكتاب الآخرين ... الخ » (ص ٤٢٣) .

ومن المقالات الجديرة بالمناقشة فى الموسوعة المقال المكتوب عن « ماركس » . فكاتب هذا المقال يقول فى بداية حديثه بالنص الواحد : « ولم يكن ماركس فيلسوفا فى بداية الأمر » (ص ٢٨٨) ، ثم لا يلبث أن يقول بعد ذلك بثمانية اسطر : « ومع هذا كله فقد بدا (ماركس) فيلسوفا » ! والتناقض فى رأينا واضح ، اللهم الا ان تكون الترجمة هى المسئولة عن هذا اللبس. ثم يتحدث الكاتب عن مادية ماركس ، فيخلط بينها وبين المادية الفرنسية المتطرفة التى ظهرت فى نهاية القرن الثامن عشر ، وكأن ليس هناك أدنى فارق بين المادية الآلية الصرفة من جهة ، والمادية الجدلية أو الديالكتيكية من جهة أخرى . والكاتب يشير الى تأثر ماركس بجدل هيجل ، ولكنه لا يتوقف طويلا عند شرح أصول الجدل الماركسى ، وأوجه الخلاف القائمة بينه وبين جدل هيجل . وحين يقول الكاتب « ان فكرة الصراع والأزمة بوصفهما السبب الوحيد للتقدم قديمة قدم هرقليطس » (ص٢٩٢) : فان من المؤكد انه عندئذ انما يعمد الى « تسطيح الجدل الماركسى لكى يجعل منه مجرد صورة من صور الدياليكتيك اليونانى القديم . ومترجم المقال يترجم كلمة aliénation بلفظ « الانسلاخ » وهى فى رأينا ترجمة غير موفقة ، لأن اللفظ يشير الى اغتراب الانسان عن ذاته ، وانحطاطه الى مستوى « الشىء » وهو يترجم كلمة Idéologie بلفظ « التبرير العقلى » ، وكان الأفضل ترك الكلمة كما هى ، بدلا من ترجمتها بهذا اللفظ الذى لا يؤدى المعنى ، خصوصا واننا نراه يعود فيستخدم ترجمة اخرى هى « الأفكار المذهبية » (ص ٢٩٤) ، ... وما دمنا بصدد الحديث عن ماركس ، فلنقل ان الموسوعة لم تخصص لانجلز (صديق ماركس وشريكه فى المناداة بالأشتراكية العلمية) سوى ستة عشر سطرا ، وكان من الواجب شرح فكرة انجلز عن « دياليكتيك الطبيعة » والكشف عن الاضافات الجديدة التى قدمها هذا المفكر الاشتراكى الكبير لفلسفة « المادية التاريخية » .

ولا يتسع المقام للاشارة الى الكثير من الملاحظات التى تعن للقارىء أثناء قراءته للكثير من مقالات الموسوعة . فقارىء مقال « القديس اوغسطين » يجد اشارة الى مذهب « الفلاغونسية » ، والذى نعلمه ان المذهب يسمى باسم « البلاجيئية » Pélagionisme نسبة الى Pélage الذى كان ينادى بالحرية البشرية ، وينكر دور « اللطف » grâce (أو « النعمة الالهية ») فى تحقيق « نجاة » الانسان . وكاتب مقال « المادية » يتحدث عن « مادية طارئة » emergent materialism فى حين ان المقصود بلفظ emergence عملية « الانبثاق » أو « الظهور » لا مجرد الاشارة الى الحدوث الطارىء . وكاتب مقال «برجسون» يقول ان الفيلسوف الفرنسى كان استاذا للفلسفة بكلية « كليرمون — فران » ، والصحيح انه كان يدرس الفلسفة بليسية هذه المدنية

(لا بجامعتها) . وكاتب مقال « سارتر » يشير الى رواية سيمون دى بوڤوار المسماة باسم Les Mandarins فيترجمها المترجم العربى باسم « حكام الصين » ، فى حين أن الرواية كلها لا تدور الا حول « المثقفين » ، أو ذوى النفوذ من أهل المعرفة les lettres infinents ... الخ . وكلمة pantheism تترجم فى الموسوعة بلفظ « حلول » ، فى حين أنها تعنى « وحدة الوجود » ، لأن حلول الله فى الانسان شىء ، ووحدة الطبيعة والله شىء آخر . وفى قائمة أسماء المذاهب ترد كلمة « مذهب الربوبية » لترجمة لفظين هما Deism Theismy (ص ٤٣٩) ، وكان من الواجب النص على الفارق بين الاصطلاحين على اعتبار أن الأول منهما يشير الى تأليه عقلى بينما الثانى يشير الى ضرب من التأليه الدينى ، فالأول منهما ينصب على تأليه « الديانة الطبيعية » ، فى حين ينصب الثانى على تأليه « الأديان المعروفة » . وقد فرق كانت بين اللفظين تفرقة واضحة فى كتابه المشهور : « نقد العقل الخالص » ، على اعتبار أن الأول منهما يشير الى مجرد وجود الله ، بينما ينسب اليه الثانى بعض الصفات بوصفه المبدأ الأول لسائر الأشياء ... الخ .

وأخيرا لابد لنا من أن نشير الى أن الأخطاء اللغوية والمطبعية فى الموسوعة — على الرغم من ضخامتها — قليلة جدا ، فلم نعثر فى الكتاب كله الا على بعض هنات هنيات نذكر منها العبارة الواردة بمقال « علم الظواهر » (ص ٢٠٦) حيث يقول الكاتب :

« فقد كان ينظر الى أتباع علم الظواهر ... على أنهم ميتافيزيقيين قطعيين .. » والصواب — كما هو واضح — « ميتافيزيقيون قطعيون » . وفى المقال المكتوب عن هيجل (ص ٣٩٥) ترد عبارة : « فان كتابه هذا ، وكثير من فلسفته المتأخرة ... » والصواب «وكثيرا» . وفى قائمة أسماء الكتب يرد أمام اسم كتاب كامى « الطاعون » Le Peste ، والصواب La Peste ... الخ .

ولكن هذه الملاحظات العابرة التى عنت لنا أثناء قراءتنا للموسوعة الفلسفية المختصرة لا تقدح بأى حال فى قيمة هذا العمل الفلسفى الضخم ، خصوصا اذا لاحظنا أن الأساتذة المترجمين قد بذلوا جهدا كبيرا فى نقل مواد الموسوعة الى لغتنا العربية بعبارة سليمة دقيقة ، فضلا عن أن الأستاذ المراجع قد قدم للقارىء العربى مواد كثيرة عن أهم الشخصيات الاسلامية . وقد كنا نود أن يضيف الأساتذة المترجمون الى العدد الكبير من ملاحق الموسوعة قائمة بأسماء المصطلحات الفلسفية ، دون الاقتصار على أسماء المذاهب وأسماء الأعلام . ولا شك أن القارىء العربى الذى يجد بين يديه اليوم مثل هذه الموسوعة الفلسفية الممتازة لن يسعه سوى أن يأمل من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية العمل على اصدار « معجم فلسفى » أوفى وأشمل ، يكون بمثابة مرجع أمين لسائر المشتغلين بالدراسات الفلسفية فى الشرق العربى . وربما كان من الأهمية بمكان — بالنسبة الى جماعة المتخصصين فى الفلسفة — أن تظهر عندنا ترجمة عربية دقيقة لمعجم من المعاجم الفلسفية الضخمة مثل « المعجم الاصطلاحى والنقدى » لأندريه لالاند (مثلا) أو لغيره من المعاجم الأوروبية الوافية .

د. زكريا ابراهيم

جسم الانسان

أعضاؤه ووظائفها



تأليف : الدكتورة أديث سپرول
ترجمة : د. عبدالحافظ حلمى محمد
الناشر : دار النهضة العربية
٢٨٧ ص ١٧×٢٤ سم الثمن ٢٥ قرشا

لعل من اكثر الوان الثقافة العلمية مساسا بالانسان ، واوثقها صلة به ، دراسته لذلك البنيان الذى تتردد فيه انفاسه ، فهو وسيلته التى يمارس بها حياته الدنيا بما فيها من صور الخير والشر والمتعة والشقاء ... وحتى رجل الروح الناسك لن يستطيع ان يبالغ فى تجاهل هذا الجسد الفانى الذى يسبح الله بلسانه ، ويناجيه بجنانه ، ويسخر جوارحه لما فيه ابتغاء رضوانه ...

ولا شك ، أن الباحث فى آيات الله فى خلقه لن يجد ماهو اقرب مثالا اليه مما يحتويه جسده ويدور فيه فى كل لحظة من حياته ، فهو أولى ما يستحق منه النظر عملا بقوله تعالى : « وفى انفسكم أفلا تبصرون » ...

بهذه العبارات صدر المترجم كتاب « جسم الانسان » الذى قدم ترجمته الى المكتبة العربية منذ عدة اشهر ، والذى نجد فيه ـ مصداقا لهذه الكلمات ـ اكثر الحقائق العلمية دلالة على الاعجاز فى خلق الانسان ، ورقى تكوينه بما يتفق مع وضعه على قمة التطور بين غيره من المخلوقات ...

ومؤلفة الكتاب طبيبة واستاذة جامعية تخرجت فى كلية كولومبيا للأطباء والجراحين Columbia College of Physicians and Surgeons حيث تأهلت لممارسة الطب وتدريسه ، ثم تخصصت بعد تخرجها فى فرع من أدق فروعه وأهمها هو علم التغيرات المرضية او الباثولوجية Pathology من ناحيتيه العملية والنظرية ، فمن الناحية

الأولى اشتغلت اخصائية لهذا الفرع بمستشفى فرانسيس ديلافيلد فى مدينة نيويورك لبضعة عشر عاما ، ومن الناحية الثانية اشتغلت بالبحوث العلمية والتدريس حتى أصبحت استاذة لهذا العلم فى جامعة كولومبيا التى تخرجت فيها ... ثم انتهى بها المطاف منذ عامين الى معهد روثوك بارك التذكارى فى بافالو حيث تعمل استاذة حتى يومنا هذا ...

وكتاب « جسم الانسان : اعضاؤه ووظائفها » ليس مؤلفا جافا فى علم التشريح ، بل هو يجمع بين وصف التركيب وشرح الوظائف جمعا بارعا تتضح للقارىء من خلاله علاقة كل منهما بالآخر ، ويفسر كثيرا من اسرار الملاءمة الوظيفية فى مختلف اعضاء جسم الأنسان الظاهرة والباطنة ... وقد طبع هذا الكتاب فى لغته الأصلية طبعتين : الأولى فى مايو عام ١٩٥٥ ، والثانية فى يوليو عام ١٩٦٣ ، فى المظهر اللائق بمادته العلمية ، والرسوم الجميلة بريشة المصورة كاترين الجين ، التى عرفت بقدرتها الفائقة على التعبير عن الموضوعات العلمية بأوضح الخطوط واكثرها دلالة ، والأشكال التوضيحية التى قاربت المائه ، واللوحات التى اربت على الثلاثين عددا ...

ولقد كان من حظ المكتبة العربية ان قام بنقل هذا الكتاب الى لغتنا استاذ جامعى مصرى تزود أثناء دراسته بالمعلومات الأساسية فى علم الحيوان وبخاصة التشريح المقارن ، وعلم وظائف الأعضاء ، وامضى فى لندن ثلاث سنوات (١٩٤٧ — ١٩٥٠) حصل خلالها على درجة الدكتوراه ، واتيحت له اثناءها فرصة التبحر فى مادة تخصصه واجادة اللغة الانجليزية الراقية كتابة واطلاعا ومناقشة ... الى جانب شغفه الفطرى باللغة العربية ، فتوفرت له بذلك كل الوسائل التى كفلت له بلوغ ما احرزه من توفيق فى هضم مادة الكتاب وتمثلها ، ثم نقلها الى العربية نقلا امينا ، دون التقصير فى عرضها عرضا شائقا جذابا يسهل على القارىء العادى مهمة فهمه والافادة منه ...

ويتألف الكتاب من خمسة عشر فصلا ، تناولت المؤلفة فى عشرة منها أجهزة الجسم المختلفة ، وهى بترتيب ورودها فى الكتاب : الجهاز القلبى الوعائى ، جهاز التنفس ، جهاز الاغتذاء ، الجهاز البولى، جهاز الافرازالداخلى، جهاز التناسل فىالذكر، جهاز التناسل فىالأنثى، الجهاز العصبى ، الجهاز الهيكلى العضلى ، ثم اخيرا الجلد ... أما الفصول الخمسة الباقية فهى : فصل تمهيدى استهلت به المؤلفة الكتاب ، وفصل عن الدم واللمف ، وفصل ثالث عن الكبد ، ورابع عن الأيض ، وخامس عن الحمل ..

وفى الفصل التمهيدى قدمت المؤلفة للكتاب بشرح الأسس الأولية للموضوع ، فحددت المقصود بالجسم « السوى » ، ووصفت الخلية وانسجة الجسم ، وشرحت كيف تكون الأنسجة أعضاء ، وكيف تجتمع الأعضاء فى جهاز .. ومن خلال ذلك تعرضت المؤلفة لموضوع تجدد الأنسجة والتئام الجروح وتكوين الندوب ...

وفى الفصل الثانى « الجهاز القلبى الوعائى » تناولت المؤلفة تركيب ووظائف القلب بتفصيل ودقة غير معهودين فى كتاب من ذلك الطراز ، ومن مظاهر هذا كلامها عن الأساس العصبى لنبض القلب ، وعن وظائف صماماته المختلفة ، وعن الشريانين التاجيين وانتقلت المؤلفة من القلب الى اوعية الدم واللمف ، ثم الى دورة الدم فى الجسم ، ودنيامية هذه الدورة والقوى المؤثرة فيها ، وذكرت الحدود الطبيعية لضغط الدم ، وكيف انه يتفاوت فى الشخص الواحد تفاوتا قليلا ويتأثر بالتقلبات العاطفية تأثرا وقتيا ، ويميل الى الارتفاع بتقدم السن..

وفى الفصل الثالث : « الدم واللمف » وصفت المؤلفة تركيب الدم ، وكيف انه يعكس كثيرا من مظاهر الأمراض ، ونبهت الى كثير من النذر التى قد تخفى علينا لولا ظهور آثارها فى دمائنا .. وشرحت دور خلايا الدم البيض فى مقاومة الأمراض ، وتغير النسبة المئوية لكل نوع منها فى حالة بعض الأمراض المعدية ، وشرحت كيفية تخثر الدم « وهو تكون ما يسمى عادة بالجلطة الدموية » والمواد الداخلة فى ذلك ، وتحدثت عن مجموعات الدم واهميتها فى اسعاف حالات النزيف الحادة والحوادث الخطيرة التى تستلزم نقل الدم الى مصاب ، وفى مصير بعض الصفات

الوراثية وحياة الجنين ... وعند الكلام عن اللمف أشارت المؤلفة الى العقد اللمفية « وهى ما تسمى تجاوزا بالغدد اللمفاوية » واهميتها فى مقاومة عدوى الأمراض عن طريق ما تحوية من الخلايا المحملة بالأجسام المضادة والخلايا البلعمية ...

وفى الفصل الرابع وصفت المؤلفة أعضاء التنفس وصفا تفصيليا : من أول فتحتى الأنف حتى حويصلات الرئتين ، وبينت أنه لولا الاجراءات الوقائية التى تقوم بها المسالك التنفسية لتعرضت رئاتنا على الدوام لصور من الأذى كفيلة باخترام العمر .. وقد أبدت المؤلفة بعض الملاحظات المفيدة المتعلقة بوظائف أعضاء التنفس ، ومن ذلك تنبيهها الى خطورة تقديم السوائل للمرضى غير المستجمعين لوعيهم أو المتعرضين لفعل مادة مخدرة ، لكونهم فى هذه الأحوال غير قادرين على السعال الذى يطرد ما قد يتسلل من هذه السوائل الى الرئتين ، والى ضرر استخدام بعض مستحضرات الأنف المخدرة دون تبصر ، حيث أن هذه المستحضرات تقلل من نشاط الأهداب المبطنة لمسالك الأنف والطاردة للأجسام الغريبة بحركتها الدائبة . كما أشارت الى ما تلعبه تجاويف الأنف والفم من دور فى تحديد مميزات الأصوات ... ومن ذلك أيضا ملاحظتها البارعة عن التقاط الطفل الوليد أول أنفاسه ، وكيف أن الصيحة القوية التى يطلقها تساعد على انتشار رئتيه وابعاد جراثيم المرض عنهما فى أول عهدهما بالزفير .. وما أوضحته من أن غاز ثانى أوكسيد الكربون الناتج من عملية التنفس هو — لحسن الحظ — عامل منبه لمركز التنفس فى المخ ، بحيث تؤدى زيادة تركيزه فى الدم الى الاسراع فى التنفس وطرد هذا الغاز الضار مع هواء الزفير ..

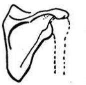
وفى الفصل الخامس وصف مسهب لأعضاء جهاز الاغتذاء « وهو ما يسمى تسمية قاصرة بجهاز الهضم دون نظر الى وظيفته الثانية وهى الامتصاص » ، وملحقات هذا الجهاز كالبنكرياس والغدد اللعابية (ومن بينها الغدتان النكفيتان). وفى هذا الفصل شرح دقيق لعمليات الهضم ، ودور الخمائر المساعدة عليه ، وقد تخلل هذا الشرح بعض الملاحظات القيمة عن حموضة المعدة والقرح المترتبة عليها ، وعن أهمية وجود البكتريا فى الأمعاء ، وعن تأثر حركة الأمعاء بالمؤثرات العاطفية ، وبعض الطرائف مثل قدرة المرء على رفع الطعام فى طريقه الطبيعى الى المعدة حتى اذا تناولناه واقفين على رءوسنا !!.

ومع أن الكبد من ملحقات جهاز الاغتذاء الا أنها قد استقلت بالفصل السادس كله ، ولا غرابة فى هذا فان للكبد — فضلا عن اسهامها فى الهضم بافراز الصفراء — وظائف منوعة فى اختزان المواد الغذائية وتنظيم استخدامها ، كما أنها تلعب دورا فى تخثر الدم — بل وفى منع هذا التخثر أيضا !! — وفى القضاء على السموم ، كما أنها تؤثر فى مستوى بعض الهرمونات ... ولم يفت المؤلفة قبل ختام هذا الفصل أن تشير الى المظاهر المتنوعة المنعكسة عن قصور الكبد فى اداء وظيفتها ، وعن امكان اكتشاف هذه المظاهر بالاختبارات المعملية المناسبة ...

ومن الطبيعى أن يكون الكلام فى الفصل السابع — بعد التنفس والهضم — عن الاخراج والجهاز البولى ... وقد نالت الكليتان ما تستحقان من الاهتمام بوصفهما التشريحى والنسيجى ، وطريقة قيام النفرونات (وهى الوحدات الأساسية للكلية) باستخلاص البول من الدم ... كما أشارت المؤلفة الى ما يطرأ على الكليتين من تغيرات فى حالة مرض البول المائى (الديابيتس الكاذب) ... وفى الحديث عن عملية التبول وتنظيمها العضلى الارادى أشارت المؤلفة الى تأثر هذه العملية ، بالانفعالات «كالفزع الذى قد يكون وحده سببا فى فقد السيطرة على التبول » ، وما يمكن استنتاجه من تحليل البول كيماويا وفحصة مجهريا من وجود بعض الخلل فى وظائف الأجزاء المختلفة للكليتين . أو الاصابة بمرض السكر أو وجود نزيف فى المسالك البولية ...

ولعله لم يكن من قبيل المصادفة أن يتوسط الكتاب الفصل الخاص بالأيض — وهو ميزان نشاط الكائن الحى كله — وقد بذلت المؤلفة جهدا موفقا فى تيسير فهم هذا الموضوع المعقد بطبيعته ، فبسطت الكلام عن الانزيمات وتوليد

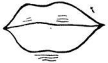
الطاقة ، وبناء الزلاليات وهدمها لدى الأطفال والبالغين والناقهين ... وعند الكلام عن أيض الماء والاليكتروليتات أشارت المؤلفة الى اهمية هذا التوازن الدقيق بالنسبة الى الحياة ، وكيف أن ادنى تغير فى مقدار الصوديوم أو البوتاسيوم يؤدى الى امراض خطيرة كعجز القلب عن الانقباض القوى السليم ، بل ان اى



تحول طفيف فى درجة حموضة الدم قد يؤدى الى الوفاة .

ولا شك فى ان جهاز الافراز الداخلى (مجموعة الغدد الصم أو عديمة القنوات) خليق بما اولته المؤلفة من اهتمام خاص ، فان سيطرة ماتفرزه هذه الغدد من الهرمونات على مناشط الجسم المتعددة من الأهمية والوضوح بحيث لا يمكن تجاهلها ، فى الوقت الذى تظل كيفية تخليق هذه الغدد لهرمونات سرا معجزا ... ولقد أفردت المؤلفة لهذا الجهاز فصلا مطولا تناولت فيه الغدة النخامية وهرموناتها المتعددة ، ودورها القيادى بين غيرها من الغدد الصم ، وما ينجم عن قصور هذه الغدة من مرض الديابيتس الكاذب ، وكيف ان جزءا معينا من افرازات النخامية هو البيتوسين يستعمل بدقة وعناية للمساعدة على بدء عمليات الولادة أو تقويتها فى حالات معينة ... ثم تحدثت عن الكظرين وكيف يؤدى تلف قشرتيهما الى الوفاة فى سحابة يوم واحد ، ثم عن البنكرياس ومرض البول السكرى (الديابيتس الحقيقى) الذى جاء ذكره فى أوراق البردى المصرية القديمة . وكان هذا من اول الكتابات فى التاريخ عن هذا المرض الذى لازالت اسبابه وطريقة علاجه تحير الطب ... ثم تحدثت عن مناسل الذكور والاناث وهرموناتها ودورها فى النضج الجنسى وظهور الصفات الثانوية المميزة بين الجنسين ، وكيف أن الاستيروجينات التى يفرزها المبيض تعمل على تعجل نمو العظام ، ومن ثم تدفع الى توقف نموها مما يفسر السر فى ان النساء اقصر قامة بصفة عامة من الرجال ... ثم أخيرا تحدثت عن الغدة الدرقية وتحكم افرازاتها فى النمو والنشاط العقلى والجسمانى على السواء ، والغدد جارات الدرقية وأثرها فى تحديد مقدار الكالسيوم والفوسفور اللازمين لبناء العظام وقيام الجهاز العصبى بوظائفة على الوجه الصحيح .

وفى الفصل العاشر وصف لجهاز التناسل فى الذكر وشرح لوظائف مختلف أعضائه الداخلية والخارجية ، وتصحيح لبعض الأخطاء الشائعة عن العلاقة بين وجود الخصيتين وقيام الرغبة الجنسية فى البالغين ، وبين الشيخوخة والحيوية الجنسية ، وفى الفصل الذى يليه شرح لتركيب جهاز التناسل فى الأنثى ووظائفه ، وحديث عن بعض أسباب العقم فى النساء (ومنها انسداد قناة فالوب نتيجة لالتهاب قديم) وعن دورة الطمث ودل الحيض الناتج عن تمزق بطانة الرحم نتيجة لتحلل البويضة اذا لم يتم تلقيحها ، وعن انتاج البويضات كل شهر (فى أثناء النصف الأول من دورة الطمث) وغير ذلك من الحقائق مما تهم الكثيرين معرفته لتكون ثقافة جنسية سليمة ... وقد أحسنت المؤلفة بتخصيص الفصل التالى للحديث عن الحمل ، وعن مراحل نمو الجنين وتحديد جنسه (ذكر ام انثى) وتشكله ، وفى أثناء ذلك ذكرت بعض الاختبارات التى تجرى للتحقق من حدوث الحمل فى مراحله الأولى ، وشرحت العلاقة بين الام والجنين

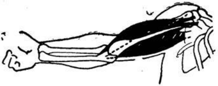


مبينة الا وسيلة لتأثره بأحوالها العصبية والعاطفية اللهم الا فيما تنتج عن آثار هذه الأحوال فى صحتها العامة ، وصححت الخطأ الشائع فى الاعتقاد بأن الحمل يسبب تسوس الأسنان ، وبينت أن الحمل ليست له آثار ضارة فى الحامل اذا هى حرصت على ان تنال

كفايتها من الغذاء والراحة ، وقد تتبعت المؤلفة مراحل نمو الجنين المختلفة حتى ولادته ، وبينت كيف أن الطفل الذى يولد قبل شهره السابع يحتاج لكى يعيش الى عناية خاصة ، لعل أهم مظاهرها حفظه فى محضن خاص مضبوط الحرارة ، وتغذيته تلقيما فى فمه لعدم قدرته على مص حلمة الثدى ... وقد أكملت المؤلفة الموضوع بالحديث عن تكوين الثديين وطريقة افراز اللبن لدى المرضع ، وأثر الارضاع فى موعد عودة دورة الطمث والاباضة .

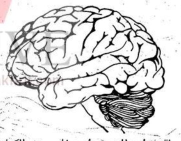
وقد انفرد الجهاز العصبى باهتمام ملحوظ ، فالفصل الثالث عشر الخاص به هو أطول فصول الكتاب ، تناولت فيه المؤلفة أقسام الجهاز التشريحية والوظيفية قسما قسما ، ففى حديثها عن الجهاز العصبى المركزى أسهبت فى تتبع المسارات العصبية فى الحبل الشوكى حتى نهاياتها فى قشرة المخ حيث يتم ادراكها وتقويمها ، وفصلت الكلام عن نصفى كرة المخ وفصوصهما ووظائفها ، ولا سيما الفص الجبهى وهو الجزء الأكثر نموا فى الانسان منه فى سائر الحيوانات الرئيسية الأخرى ـ ولا عجب ـ فهو مركز الوظائف العقلية العليا كالحكم والتقدير والمنطق والتدبير ، كما أنه موضع ادراك العواطف ... وكذلك شرحت عمل « مناطق الترابط » فى المخ ، وهى مهد الذاكرة والملكات التى هيأت للانسان أن ينفرد عن جدارة بمنزلته الرفيعة بين سائر أنواع الحيوان ... وقد ذيلت المؤلفة ذلك الفصل الطويل بقسم شائق عن الحواس الخاصة كان جديرا بأن يستقل بفصل خاص به .. وفى ذلك القسم تحدثت المؤلفة عن العين وحاسة الابصار ، وما فيها من الأعاجيب ، وما يطرأ عليها من العلل ، وأهمية فحص قاع العين فى تشخيص بعض الأمراض كتصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم والبول السكرى وضعف الكليتين ، وذلك لما تعكسه هذه الأدواء من آثار على الشرايين الدقيقة فى نسيج الشبكية ... ثم انتقلت الى الأذن وحاستى السمع والاتزان ، واللسان وحاسة التذوق ، والأنف وحاسة الشم ، ومن خلال هذا نوهت بالفكرة فى عمل أجهزة السمع الصناعية ، وبالارتباط الوثيق بين حاستى الشم والذوق ، وبين تجاربنا الخاصة وبعض الروائح ، حتى لقد تبقى بعض الذكريات فى نفوسنا سنين عديدة لارتباطها الدائم برائحة بعينها ...

ولقد جمعت المؤلفة بين الجهازين الهيكل العظمى والعضلى فى فصل واحد ، معتبرة اياهما جهازا واحدا ، وهى وجهة نظر مقبولة يتبعها بعض المؤلفين ، وقد استعرضت تركيب الهيكل العظمى استعراضا بارعا دون الاغراق فى احصاء العظام وسرد أسمائها العلمية المعقدة ، ولكنها شرحت أنواع المفاصل ووظائفها ، ومن أجمل ما أوردته من أمثلة على دقة الملاءمة الوظيفية للجهاز العظمى فى الانسان ، أن كثرة عظام راحة اليد والأصابع تتيح لها مرونة الحركة ودقتها الفائقتين واللازمتين لعازف البيانو مثلا ... ثم انتقلت الى الجهاز العضلى وتكلمت عن تدريب العضلات فى ضحايا شلل الأطفال لتقوم بوظائف العضلات المعطلة وما لهذا من أثر طيب فى تخفيف وطأة ذلك المرض ، ومن أطرف لفتاتها فى مقام الحديث عن العضلات ما ذكرته من تمتع عضلات الوجه بمقدرة فائقة على الحركة الارادية مما يمكننا من تغيير التعبيرات المرتسمة على وجوهنا ، وحديثها عن عضلة اللسان التى لا يعتريها الكلال مما يدعو الى الندم والأسف فى بعض الأحيان !!

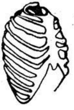


أما الفصل الأخير من الكتاب فكان عن الجلد ، وهو وضع قد يبدو غريبا للوهلة الأولى ، اذ أن الجلد هو الغلاف الخارجى الذى يكسو ما عداه من أجهزة الجسم وأعضائه ، بيد أن الجلد هو مرآة الجسم ، وفيه تجتمع نهايات الأعصاب والشعيرات الدموية ، وتنتشر الغدد ، وينعكس كثير من أحوال الجسم ، فكان من الطبيعى اذن أن يكون الكلام عنه بعد الانتهاء من شرح هذا كله ... وقد وصفت المؤلفة التركيب المجهرى للجلد واختلاف خصائصه بين

الذكور والاناث ، وما ينتشر تحته من شعيرات دموية تلعب دورا كبيرا فى تكييف حرارة الجسم ونقل ما يحقن به الجسم من عقاقير تحت الجلد ، وما يحتويه من صبغة الميلانين التى تسبب الاختلاف الكبير فى لون البشرة ، والتى بفضلها يكون الأشخاص السمر أقل تعرضا للفحة الشمس من اخوانهم البيض .. وما يحتويه الجلد أيضا من غدد دهنية وعرقية ، وتحدثت عن طريقة افراز العرق وما يتعرض له بعض الأشخاص من جراء زيادته المفرطة من نقص ملحوظ فى محتوى الجسم من الأملاح ، لابد من تعويضه بتناول مقدار من ملح الطعام وبخاصة فى الحر الشديد ... وعن التئام الجروح وقدرة الجلد على التجديد وتعويض ما يبلى من اجزائه، وحماية الأجزاء المكشوفة المعرضة للاحتكاك الدائم بطبقة من الخلايا القرنية المتصلة (وهو السر فى ظهور الكاللو المعروف) ... وأشارت الى بعض علامات الجلد المكروهة (كالنمش) والمرغوبة (كالخال أو الشامة) التي ليست فى الحقيقة الا بعض التشوهات الطبيعية الموروثة أو الأورام الحميدة فى الجلد ...



ولقد رأى المترجم ان يخلى متن الكتاب من المصطلحات الانجليزية واللاتينية حتى لا تعوق القارىء عن الانطلاق فى القراءة ، ولهذا ذيل الكتاب بمعجم عربى ـ انجليزى لاهم المصطلحات الواردة فيه ، كما حرص على تفسير هذه المصطلحات بالعربية تفسيرا موجزا دقيقا خصص له جزءا فى نهاية الكتاب أيضا ... ولا يفوتنا أن نشير الى ما بذله المترجم من جهد فى اعادة ترقيم الرسوم التوضيحية وعنونة اجزائها بالعربية ، وما أضافه الى مادة الكتاب من تعقيبات علمية ولغوية نافعة وطريفة فى آن ، ضمنها حواشي الكتاب كلما دعت الى ذلك ضرورة ومن أمتع التعقيبات العلمية التى وردت فى حواشى الكتاب :



● ذكره لطريقة كتابة مقدار ضغط الدم (ص ٣٠) .

● ايراده بعض المعلومات عن توزيع مجموعات الدم فى المجتمع المصرى ، التى يستدل منها ان اغلب مواطنينا تنتمى دماؤهم الى المجموعة « ا » ثم « ب » ، وقد سجل مصدر هذه المعلومات بدقة وامانة . (ص ٤٥) .

● ملاحظته عن خلو جلود الكلاب من الغدد العرقية مما يزيد حاجتها الى اللهاث (ص ٦٤) .

● تعليله لقصر القامة فى النساء عنها فى الرجال بأن الفتيات يصلن الى سن البلوغ عادة قبل الفتيان ، وما يصحب ذلك من التبكير فى اطلاق الهرمونات التى توقف نمو العظام (ص ١٢٨) .

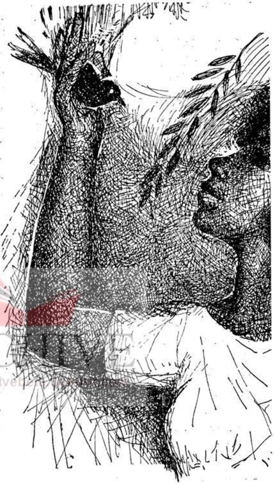
● ملاحظته عن العلاقة بين تقديم المضيفات بعض الحلوى أو اللبان لركاب الطائرة عند بدء الرحلة ، وما يترتب على هذا من اعادة غشاء الطبلة الى وضعه الطبيعى بعد انبعاجه الى الخارج بفضل انخفاض الضغط الخارجى فى طبقات الجو العليا (ص ٢٠٢) .

● حكايته لسبب تسمية وتر العرقوب باسم « وتر اخيل » نسبة الى هذا البطل الاغريقى وما ورد عنه من أساطير فى الالياذة (ص ٢٢٦) .

ولا شك فى ان فى ذلك حرصا محمودا من المترجم على تقديم اكبر قدر من الفائدة الى القارىء عن طريق ربط الحقائق العلمية بالمشاهدات اليومية أو المعارف العامة ، وهو ما نحبذه فى كل عمل تثقيفى لابد لنجاحه من ان يخاطب اهتمامات الناس ويقرب العلم الى قلوبهم .

د. عفيفى محمود

دفاع عن الزنوج



تأليف : أحمد محمد عطية

الناشر : الدار القومية للطباعة والنشر
٩٨ ص ١٧×٢٤ سم الثمن ٢٠ قرشا

من الاهداء الذى صدر به « أحمد محمد عطية » كتابه « دفاع عن الزنوج » ، نستطيع أن نعرف على الفور أنه يركز هـذا الدفاع فى الزنوج الأمريكيين .. الاهداء يقول :

« الى ريتشارد رايت ، ودكتور دوبوا ، وبول روبصـــون الهاربين من جحيم التفرقة العنصرية فى الولايات المتحدة الأمريكية الى باريس واكرا ولندن ، أقدم صرخة أخرى ضد الاضطهاد العنصرى » .

والحق ، أن المؤلف كان موفقا فى اهدائه هـذا .. لانه اختـار بالذات ثلاثة من ابرز الشخصيات الزنجية الأمريكية ، والثلاثةاضطروا الى الهـرب من اضطهـاد البيض .. والثلاثة يمثلون أيضا نموذجا لما يمكن أن يكون عليـه العقلية الزنجية التى يصر دعاة التفرقة العنصرية على أنها عقلية « متخلفة ، مترديه ، بدائية » وليست كعقلية السادة البيض ! ان « ريتشارد رايت » مثلا ـ الذى هرب فى سنة ١٩٤٦ الى باريس مع زوجته وابنته ـ يعتبر واحدا من

أعظم من أنجبتهم أمريكا من الكتاب ، كما يمثل النقلة الرائعة للأدب الزنجي الامريكي في هذا القرن. ودكتور « دوبوا » يعتبر أكبر المفكرين والفلاسفة الزنوج ... وقد تتلمذ على يديه كثيرون من المفكرين والدارسين الزنوج حتى اعتبر بحق « معلم زنوج امريكا » في هذا القرن ، وكانت له نشاطات بالغة الأثر في ميدان الفكر الزنجي الثائر الحديث كذلك فان «پول روبصون» يعتبر قمة في عالم الغناء والموسيقى الامريكية ... وواحدا من قلائل « المثقفين في هذا الميدان » .

وكتاب « دفاع عن الزنوج » الذي أصدرته الدار القومية للطباعة والنشر في سلسلة كتب « من الشرق والغرب » هو محاولة طيبة لعرض قضية الزنوج في أمريكا (وان أفرد فصلا صغيرا من حوالي أربع صفحات للاشارة الى التفرقة العنصرية في جنوب افريقيا وانجولا) .

وقد بدأ المؤلف كتابه بفصل عرض فيه للتطورات الأخيرة في قضية الزنوج الامريكيين .. التي بدأت مع بداية اليوم الثامن والعشرين من شهر اغسطس سنة ١٩٦٣ حين بدأ أكبر زحف سلمي في تاريخ الولايات المتحدة الامريكية تحت شعار « من أجل الحرية والعمل » .. وحين بدأ ربع مليون زنجي زحفهم من كل الولايات الامريكية الى العاصمة «واشنطن» بهدف التوصل الى حل لمشاكلهم المزمنة . وعملية الزحف هذه ، هي أسلوب من الأساليب السلمية التي تعود ان يلجأ اليها بعض زعماء الزنوج في امريكا في مناسبات كثيرة وذلك للفت انظار الرأي العام العالمي الى مشكلتهم — أو قل مأساتهم — من جهة ، ومن جهة أخرى لاحراج السلطات الأمريكية وحملها على التسليم بمطالب الزنوج الأمريكيين .

وأول من ابتدأ فكرة الزحف هذه ، هو « فيليب راندولف » رئيس « المجلس الامريكي الأسود للعمل » الذي قاد في عام ١٩٤١ زحفا للاحتجاج على العمل في القوات المسلحة الامريكية ، وزحفا آخر في عام ١٩٥٧ الى واشنطن قاده الزعيم الزنجي القس الشاب « مارتن لوثر كنج » .. كذلك قاد زحفين للشباب الزنجي الى واشنطن في عامي ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ .

ولقد كان لزحف عام ١٩٦٣ دويه الكبير باعتباره اضخم زحف قام به الزنوج الأمريكيون وذلك بالرغم من أن « ثورة الزنوج » السلمية بدأت قبل ذلك بحوالي عشر سنوات مع احداث اغسطس سنة ١٩٥٥ في ولاية مونتجومري : تلك الأحداث التي يعتبرها الكاتب الزنجي الأمريكي « لويس لوماكس » الشرارة الأولى لهذه الثورة الزنجية والتي اعقبت امتناع السيدة الزنجية «روزا باركس» عن ترك مقعدها في الأوتوبيس لأحد البيض من الركاب . كان لهذا الزحف دويه الكبير لأن المتعصبين البيض اطلقوا العنان لحقدهم العنصري في بعض ولايات الجنوب (وخاصة ولايه « الاباما »وحاكمها هو « ادجار والاس » المشهور بتعصبه الأعمى ضد الزنوج) ولأن الزحف ضم أشهر الشخصيات الزنجية في عوالم الأدب والفن والرياضة ... الى جانب كثير من البيض ذوي الشخصيات البارزة ! .. وكذلك لأنه كان بالغ الدقة والنظام. ولأنه سار بموافقة الرئيس الأمريكي الراحل « جون كنيدي » . وفي هذا الزحف وقف « مارتن لوثر كنج » يقول : « اني أحلم بيوم يجلس فيه ابناء العبيد في جورجيا وأبناء الذين كانوا سادة العبيد هناك ؛ جنبا الى جنب على مائدة الانسانية . اني أحلم بيوم تتطور فيه المسيسبي من ولاية ترزح تحت نير الاضطهاد ، الى واحة للحرية والعدالة والمساواة. اني أحلم بيوم يعيش فيه أبنائي الأربعة الصغار في دولة لا تزنهم بلون أجسامهم وانما تقدمهم بطابع شخصياتهم !! » .

وكان الهدف من وراء الزحف هو دعوة الكونجرس الأمريكي الى اقرار مشروع قانون الحقوق المدنية الذي قدمه الرئيس الراحل « جون كنيدي » والذي يحقق المساواة بين المواطنين الامريكيين : البيض والسود على السواء وذلك بمنح الزنوج حق التصويت وبتخفيف القيود التي تفرض على الزنوج وتعوقهم عن ممارسة حق التصويت ، واعتبار

المتعلم هو كل من اجتاز سنته السادسة من التعليم ، ومنح فرص التعليم المتكافئة ، ومنع التفرقة العنصرية فى المدارس والمعاهد العليا ، وتعزيز ذلك بمنح اعانات مالية للمدارس التى لا تطبق التفرقة العنصرية فى قاعاتها الدراسية . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى اتاحة مزيد من السلطة للمدعى العام تمكنه من اجبار المدارس التى تمنع السود من دخولها ، الى ادخالهم ، بناء على التماس من الطلبة الممنوعين من الدخول ، والسماح للزنوج بارتياد دور السينما والمسرح والغناء والمطاعم والملاهى وركوب عربات الاوتوبيس والقطار جنبا الى جنب مع البيض .

والواقع ان قانون الحقوق المدنية الذى قدمه « جون كنيدى » لم يكن شيئا جديدا ، فقد سبق أن قدم شبيها له اكثر الرؤساء الذين سبقوه .. ولكن الجديد فى مشروع « كنيدى » ـ الذى اقره الكونجرس منذ بضعة اشهر ـ أنه قدم وسط حملة عالمية ضد التفرقة العنصرية ، ووسط نمو هائل للكتلة الحيادية الأفروآسيوية الملونة ، ووسط هجوم عارم ضد سياسة التفرقة العنصرية فى جنوب افريقيا .. وبعد قرارات متتالية تشجب التفرقة العنصرية أصدرتها الأمم المتحدة ومجلس الأمن ومؤتمرات باندونج والدار البيضاء وبلغراد



واديس ابابا ، وكلها تندد بالتفرقة العنصرية اينما كانت ، هذا الى جانب المناقشات والجدل العنيف المحتدم بين أنصار التفرقة وانصار المساواة ... الأمر الذى هدد بقيام حرب أهلية اخرى بين هؤلاء وأولئك .

« ولقد دابت الدعاية الامريكية على ان تكذب دائما وجود اية تفرقة عنصرية بسبب اللون فى الولايات المتحدة ... أو على الاقل كانت تتجاهلها وتسترها بنشر صور لأبطال الزنوج فى الرياضة والفنانين الزنوج فى أفلام السينما . الا ان زحف الزنوج على واشنطن وتحرر الشعوب الملونة فى افريقيا وآسيا ، كشف المستور . ومما هو معروف ان اضطهاد الملونين فى أمريكا ليس مقصورا على الزنوج الأمريكيين فحسب ، وانما تنطبق مواصفات اللون العنصرية ايضا على أبناء أمريكا اللاتينية وبورتوريكو وعلى دبلوماسيى آسيا وافريقيا . !!

وفى الفصل الثانى من الكتاب يعرض المؤلف لنشأة مأساة الزنوج فى الولايات المتحدة الامريكية .. وهى تعنى بالفعل .. تاريخهم فى هذه القارة منذ أن كان الأوروبيون « يحومون حول الشاطىء الافريقى كالطيور الجارحة ... وهم كهذه الطيور ، يعيشون على الدماء » . ومن هنا فان بداية مشكلة الزنوج مرتبطة أصلا ببداية الاستعمار الأوروبى للقارة الافريقية .. حين بدأ تجار العبيد من البيض فى اوروبا يسوقون الملايين من ابناء افريقيا الى « الدنيا الجديدة » مكبلين بالأغلال .. يستوى فى ذلك البيض البرتغاليون أو البريطانيون أو غيرهم من ابناء أوروبا .. بل والامريكيون البيض انفسهم ممن استقر المقام بهم فى أمريكا ، وممن بدءوا يستخدمون العبيد على نطاق واسع بعد التغير الهائل الذى حدث لأدوات الانتاج باختراع أول آلة لحلج القطن .. وبعد التطور الصناعى الذى اخذ يزحف على العالم الجديد .. وبعد أن أصبحت الحاجة ماسة الى مزيد من القطن .. ومن ثم مزيد من الأراضى المزروعة قطنا ، وبالتالى مزيد من العبيد ليزرعوا هذه الأرض ويجنوا القطن .

وعندما انهار الحكم الاقطاعى فى أمريكا .. وبدأ حكم البورجوازية الصناعية ، وظهرت اجيال جديدة من المثقفين الاحرار الذين راعهم ما يدور أمامهم من خطف بنى البشر وبيعهم كالسوائم ، .. عندما حدث ذلك .. كان لابد من حدوث الصدام بين الشمال الصناعى ، وبين الجنوب الاقطاعى فى أمريكا .. وكان أن نشبت حرب رهيبة بين الجانبين . الجنوب يريد استمرار استبعاد الزنوج ليستخدمهم فى أرضه المزروعة قطنا ، .. والشمال يريد تحريرهم ليظفر بهم كأيد عاملة حرة لمصانعه المتزايدة باستمرار .. ورغم أن الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب انتهت بانتصار الشمال ، الا ان العبودية ظلت قائمة رغم كل أسباب الحرب.. وظل الكونجرس الامريكى حريصا على الا يمنح الزنوج حرياتهم الكاملة .. وخاصة فى جحيم الجنوب ...

ان الجنوبيين ظلوا حتى اليوم على اصرارهم على أن يظل الزنوج عبيدا بصورة أو بأخرى .. وتحت ظل قوانين لا انسانية وجائرة ! .. كذلك فان رأسمالية الشمال كشفت عن نواياها ، فلم يكن الهدف الأساسى من تحرير العبيد هو منحهم الحرية ، انما كانت الغاية هى تغيير نوع المالك ، فالمصانع والشركات الكبرى والكتل والترسانات تريد عمالا بأجور زهيدة ، وقد أعقب الحرب الأهلية تعاون بين اقطاع الجنوب ورأس مال الشمال ، حين بدأ رأسماليو الشمال يسيطرون على مزارع الجنوب عن طريق منح ملاكها السلفيات وتبادل السلع بنتائج المزارع . وبمضى الوقت صارت العلاقة بين « وول ستريت » مقر المال فى الشمال وبين ملاك الأراضى فى الجنوب، أشبه بالعلاقة بين الاستعمار والاقطاعيين وكبار ملاك الأراضى فى المستعمرات كل منهم يكمل الآخر . وصارت الادارة والنصيب الأكبر فى مزارع الجنوب لرأسماليى الشمال .. وفى هذه الصلة يقف الزنوج موقف شعوب المستعمرات نفسها .. الضحية الواقعة بين شقى الرحى . وكما تفقد شعوب المستعمرات حرياتها من جراء تلك الصلة الملعونة بين الاستعمار وكبار الملاك ، كذلك أخذت كل المكاسب التى نالها الزنوج باعلان تحرير العبيد .. تتناقص حتى جاء عام ١٨٩٠ فوضعت الولايات دساتيرها وحرمتهم كل حقوقهم .. فلم يعد لهم مكان فى الكونجرس أو فى مجالس الولايات أو فى حكومات الولايات. وراحت جمعية « الكوكلوكس كلان » تمارس نشاطها الارهابى وتكاثفت الجمعيات الارهابية مع دساتير ولايات الجنوب فى الانتقام لملاك العبيد السابقين . وبدأت القوانين فى هذه الولايات تترى .. وكلها مليئة بأغرب ما يمكن أن يتصوره عقل ضد الزنوج .. وتمشيا مع نعرة التفرقة العنصرية البغيضة ... وفى ولاية « فلوريدا » مثلا قانون يقضى بأن يجرى تخزين الكتب المدرسية الخاصة بالطلبة البيض فى مكان بعيد عن الكتب المدرسية الخاصة بالطلبة الزنوج !!. وفى كل ولايات الجنوب قوانين تقضى بأشد العقوبة على كل من يدعو الى المساواة العنصرية ! وفى ولاية « أوكلاهوما » قانون ينص على تخصيص غرفة مستقلة فى مكاتب التليفون العمومية للزنوج !! وفى ولاية « تكساس » حيث قتل الرئيس « جون كنيدى » ... يمنع المصارعون والملاكمون البيض من أن ينازلوا المصارعين والملاكمين السود ! ..

ان كل شيء فى أمريكا ينقسم الى قسمين غير متساوين أو متكافئين ، الأفضل للأبيض والأسوأ للأسود . والاسود بوجه عام ممنوع من كل مشاركة للبيض فى الحقوق ، فى القطارات والاوتوبيسات والفنادق والملاهى والمطاعم والمدافن ! والمستشفيات والشواطىء والكنائس.. ففى كل هذه الأماكن تعلق لافتة تقول « ممنوع دخول الزنوج والكلاب » ... وهذه التفرقة العنصرية البغيضة تنسحب آثارها على الافريقيين والأسيويين وممثلى أمريكا اللاتينية الدبلوماسيين من الملونين الذين يمثلون بلادهم فى الولايات المتحدة الأمريكية والسينما الأمريكية.. التى تغزو أسواق العالم ، لا تصور الزنجى الا متخلفا منحطا .. تابعا ..

وفى نيويورك يتكدس أكثر من نصف مليون زنجى فى حى هارلم فى مبان تملكها شركات

التأمين الأمريكية وبايجار يزيد بمقدار ٢٠ ٪ عن الايجارات المنازل فى أحياء المدينة الأخرى التى يسكنها البيض . وفى حى « هارلم » هـذا لا تفتح شركات الأغذية الكبرى فروعا لها فيقع الزنوج المساكين تحت براثن التجار البيض (وخاصة اليهود) الذين يبيعونهم أردأ الأطعمة بأعلى الأسعار بنسبة تتردد بين ١٠ ٪ ، ٢٠ ٪ زيادة على الأسعار فى أحياء البيض . كذلك فان منازل الزنوج فى حى هارلم وشوارع الزنوج والمرافق العامة والمستشفيات تنعدم فيها الرعاية الصحيه ووسائل الخدمات الطبية والعناية بالمرافق العامة .. واية حجرة فى منازل الزنوج بحى هارلم لا يقل سكانها عن ستة اشخاص ، والايجار يحدد بعدد الرءوس الآدمية التى تحشر فى الحجرات ... كما ان البطالة تتفشى بنسبة بالغة بين الزنوج ، ويضطر الزنوج الى قبول أحط أنواع العمل فى منازل البيض بالساعة .. وتضطر الفتيات الزنجيات الى بيع أجسادهن ، والشباب الزنجى الى الانحراف وامتهان الجريمة ... فاذا تجرا زنجى فى الجنوب على ان يرفع صوته مطالبا بالعدالة والمساواة ، فان القانون يأخذ بتلابيبه .. وهناك ولايات (مثل ولاية جورجيا) تطبق حكم الاعدام على كل من يدعو الى المساواة بين السود والبيض ، بينما تسمح قوانينها للبيض بأن يفعلوا ما يشاءون بالزنوج .. كأن يقتل احدهم مثلا زنجيا لأنه أضاف كمية أكثر قليلا من كمية البنزين التى طلبها ... ثم تحكم المحكمة ببراءته !!

ورغم ان المحكمة العليا الأمريكية هى أعلى سلطة قضائية فى الولايات المتحدة فان حكام الولايات التى تمارس سياسة التفرقة العنصرية تعارض احكامها لأن هذه الاحكام غير ملزمة لهذه الولايات .. ومن ثم فان هذه الولايات تصر على أن تضع العقبات والعراقيل فى وجه شباب الزنوج الذين يطلبون العلم .. ويضطر كل واحد من هؤلاء الشباب ان يرفع الأمر الى المحكمة العليا الامريكية .

واذا تيسر العمل للزنجى فانه يتقاضى نصف الأجر الذى يتقاضاه الرجل الابيض مقابل نفس العمل .. هذا بالاضافة الى أن الاعمال الصعبة والمرهقة هى دائما من نصيب الزنوج والى أن العمال الزنوج ممنوعون من الانضمام الى التنظيمات النقابية العمالية .

والمصيبة بعد كل هذا ان بعض رجال الدين فى أمريكا يسبغون حمايتهم على التمييز العنصرى تماما مثلما بارك زملاء لهم من قبل تجارة العبيد ونظام الرق ، فقد ابرق القس الدكتور « البرت جاردنر » مهددا الرئيس الراحل « كيندى » بأنه وكثير من أمثاله من ابناء الجنوب يعتقدون اعتقادا أدبيا ودينيا ! : بأن المساواة بين الأجناس خطيئة ! وبأنه يجب مقاومة كل محاولة للتسوية بينها ، وأن أهل الجنوب قد يقبلون المساواة العنصرية صامتين تحت ضغط الحكومة الفيدرالية ولكنهم سوف يعارضونها فى اثناء الانتخابات ! « ان فكر التفرقة العنصرية ــ كما يقول «بيلبو» عضو مجلس الشيوخ الامريكى ــ قد وجدت فى أمريكا قبل ان يوجد ادولف هتلر ! » .. هكذا يصدر المؤلف فصلا خاصا من كتابه جعل عنوانه « الأسود .. والقردة !! »

وفى هذا الفصل يعالج المؤلف فكرة التفاضل بين الأجناس كما يتبناها دعاة التفرقة بين الأجناس .. فيعرض لدعوى النازيين الذين نادوا بأفضلية الشعب الالمانى النقى من دماء الأجناس الأخرى والذى حافظ على جنسه الآرى دون اختلاط بغيره من الأجناس .. ذلك الاختلاط الذى يرى دعاة التفرقة العنصرية انه يهبط بنقاء الجنس وافضليته .. تماما مثلما يدعى اليهود أنهم شعب الله المختار لنقاوة جنسهم من الاختلاط .. والحق انه قبل ان تحتضن النازية النظرية العنصرية ، طبقها الأمريكيون البيض فى امريكا عندما شنوا حرب ابادة وحشية ضد الهنود الحمر سكان القارة الأصليين وحين زعموا ان الدم الانجلوسكسونى هو الدم الأرقى .. وأن هذا الجنس يجب ان يسود العالم لان الشعوب الملونة شعوب منحطة غير قادرة حتى على حماية نفسها من الغزاة .. وقد فعلوا نفس الشىء بالزنوج فى امريكا ..

وفي هذا الفصل يستطرد المؤلف فيناقش الفكرة العنصرية مناقشة علمية يثبت بها زيفها وبعدها عن كل منطق وعلم .. الأمر الذى يؤكد ان الابيض والأسود سواء فى القيمة البشرية . وهو اذ تحدث عن التفرقة العنصرية ، فقد رأى ان يفرد فصلا آخر يشير فيه الى الأوضاع العنصرية بالغة السوء التى يفرضها البيض الاستعماريون على الزنوج فى جنوب افريقيا وانجولا .. ثم يتبعه بفصل آخر يعرض فيه للدور الذى تلعبه الدول الافريقية والآسيوية وهى تعمل بكل ما تيسر لها من وسائل لتعرية دعاة التفرقة وفضحهم ... ويصدر هذا الفصل بكلمة للرئيس جمال عبد الناصر يقول فيها « والتمييز العنصرى والاضطهاد ، لن يكفى للقضاء عليهما انهما اهانة للانسانية كلها فى هذا العصر .. وفى كل عصر ، وانما لابد من مقاومة باسلة بكل الوسائل والطرق حتى الوصول الى سلاح المقاطعة الكاملة لتقلب بها دفة الأمور وتحول الذين ارادوا فرض العزل على شعوب افريقية فى ارضها .. الى جيوب معزولة عن الانسانية مطرودة خارج نطاق التعاون الدولى » .

ثم يعود الكاتب مرة أخرى الى الموضوع الأصلى .. أوضاع الزنوج فى أمريكا ، فيتساءل فى الفصل الأخير من الكتاب « قانون الحقوق المدنية !! .. هل يضع نهاية لمأساة الزنوج الأمريكيين ؟ » ... ان المؤلف يرى أن « هذا القانون لا يعد بمثابة حل سحرى لمأساة الزنوج الأمريكيين كما صورته ابواق الدعاية الامريكية ، ورغم انه ينبغى ان نسلم بأن هذا القانون خطوة فى سبيل القضاء على التفرقة العنصرية .. الا أن القانون لا يمكن ان يحل مسألة ايديولوجية لها رواسب عميقة فى نفسية الشعب الامريكى ... لأن الأمريكى الأبيض يشب منذ طفولته وهو منفصل عن الزنجى لا يسكن معه ولا يدخل معه المدرسة ، والسينما تصوره له دائما متخلفا منحطا تابعا . هذا بالاضافة الى أن القانون الجديد لا ينص على فرض عقوبات جنائية رادعة على مرتكبى جرائم التفرقة العنصرية .. على الاقل كتلك العقوبات التى تفرضها قوانين بعض الولايات الأمريكية على كل من يدعو الى المساواة بين البيض والسود .

من أجل هذا يرى المؤلف ان قانون الحقوق المدنية لن يضع حدا لمأساة الزنوج فى أمريكا .. وانا وان كنت معه فى أن نزعة التفرقة لدى المرء لا يمكن ان ينهيها قانون ، الا اننى أجزم بأن اقرار مثل هذا القانون سوف يغير مع الزمن نظرة البيض الى السود وخاصة عندما تشب الأجيال القادمة من الامريكيين البيض فى ظل قوانين تفرض عليهم احترام آدمية الرجل الأسود ... ومن ثم فان قانون الحقوق المدنية سيكون بلا شك أفضل من « لا قانون » .. الأمر الذى قد يشجع البيض على مزيد من التمادى فى امتهان آدمية الرجل الأسود ..

ان كتاب « دفاع عن الزنوج » عمل طيب استطاع به المؤلف أن يعرض فى أسلوب شائق مشكلة الزنوج فى أمريكا .. بل مأساتهم هناك .. وان كنت آخذ عليه انه أفرد فصلين عن التفرقة العنصرية فى جنوب افريقيا وانجولا وعن موقف الدول الآسيوية والافريقية من مشكلة التفرقة .. ثم عاد مرة اخرى الى موضوع كتابه الأساسى .. وكان الأجدر به — حسبما أرى — أن يدمج موضوع هذين الفصلين ضمن فصول الكتاب .. حتى لا يحس القارىء — كما احسست أنا — بأنه استطرد استطرادا نزعه بعض الوقت بعيدا بعض الشىء عن الموضوع الأصلى الذى من أجله وضع كتابه .. ذلك ان الكتاب — بالرغم من عنوانه — يوحى من أول صفحة — بل ومن واقع التقديم — انه يركز على « زنوج أمريكا » ...

ومهما يكن ، فان الكتاب فى مجموعه : صرخة تدمغ دعاة التفرقة العنصرية .. وتفضح الرجل الأبيض .. وتعريه امام المجتمع الانسانى : ظالما حقودا أبعد مايكون عن الانسان السوى الذى يعرف قدر نفسه .. وقدر سواه من بنى البشر .

سعد زغلول

الجوانية

أصول عقيدة وفلسفة ثورة

تأليف : الدكتور عثمان أمين

الناشر : دار القلم ٣٤٢ ص ٢٤×١٧ سم . ث ٦٠ قرشا

الكتاب يقع فى ٣٤٢ صفحة من الحجم الكبير . فهو أشبه بالرحلة الفلسفية الطويلة . وتخص القراءة «الجوانيين» الذين يفهمون مابين السطور . رحلة فلسفية طويلة قامت على خمسة فصول . قام بها المؤلف بعد ما أطال النظر فى أمور النفس والدنيا ، ومتابعة التأمل فى بطون الكتب ، مع مداومة التعرض لتجربة الوقائع ، والمعاناة لشئون الناس. وهيتجربة مفكر حاول، بصدق ، ان ينكشف لنا خلال تجاربه . كأى موجود ، كائنا ما كان . كما يقول برجسون . فهو يتعرى ، ويتعرض ، وتحاول تجاربه أن تتخذ من العيان والملامسة صورة لها ، ان كانت ازاء موضوعات خارجية . وتتخذ تجاربه صورة الحدس أو الرؤية ان كانت ازاء الروح أو الذهن وحده .

فهو يبدأ من قرية « مزغونة » احدى قرى مديرية الجيزة ؛ حيث ولد المؤلف . وولدت فى نفسه بوادر الجوانية . حيث بدات بالانكار . كأى فلسفة تبدأ بالانكار . و « بدات هذه المرحلة بالاحتجاج على « البرانية » المتمثلة فى فقدان الوعى ، وشيوع الآلية : برانية فقيه الكتاب الذى يرغم الصغار على الحفظ عن ظهر قلب ، دون فهم . وطريقة الأزهريين فى حفظ « المتون » و « الشروح » وبائع « الهريسة » ذى المسلك الخاضع للآلية والروتين ، الخالى من الوعى والتفكير » .

فيحس المؤلف ، منذ حداثة سنه أن له حياة داخلية نامية متغيرة على الدوام . فلا الناس ولا أهله يدرون من أمرها شيئا . فهم بحكم حياتهم اليومية « برانيون » . ينظرون

بعيون الجسم لا بعيـــون الروح . ويحكمون بحسب الظاهر لا بحسب الباطن .

والتأمل ، بعـد الانكار أو السلب ، كثيرا ما يتبعه الايجاب . « وفى المدرسة السعيدية بدأت المرحلة الايجابية من حياتى ، مرحلة البناء بعد الاحتجاج ، ومحاولة استشفاف الجوهر من وراء العرض .. ولقد خضت من غير قصد معركة من أجل غاندى ، وما لبثت ان عكفت على طلب الحقيقة ، من وراء « المظاهر » . وقد كانت تلك ، فيما يبدو لى ، بوادر تأملى فى الجوانية : مشكلة الحقيقة ، والواقع ، والجوهر والعرض » .

والتمس الجوهر فى الآداب العالمية . فيوما يتردد مع هاملت ، ويوما آخر يستميله دون كيشوت .. الخ .. وبهذه الروح دخل الجامعة . واصبر على قسم الفلسفة . رغم ما كان فى ذلك من جرأة وتحد . وبدأ البحث فى الجامعـة عن فلسفة حياة تجاوز الحدود الضيقة ، وحدود المذاهب المغلقة ، ويمتد أثرها الى الشعب ، فتوقظ الشعور الوطنى ، فيتحقق حياة الحرية؟ والكرامة . وسقط امام عينيه كثير من الفلاسفة لانعزالهم عن الناس ، وعدم اجابتهم عما كان يتردد فى خاطره .

وارهق ، صاحب الجوانية ، فى البحث . وكان شتاء عام ١٩٢٨ ، حينما اخـذ دراسة تاريخ الفلسفة الحديثة معتمدا على « هندنج » فاسترعى انتباهه فيشته . فاستخفه الطـرب والابتهاج : « لقد وجدت ضالتى بعد ان طال عنها بحثى . فهذا هو فيلسوف الوعى القومى الألمانى كما تراءى لى من قبل ان محمد عبده هو فيلسوف الوعى المصرى . ذلك أن فيشته كان فيلسوفا ، وكان عاملا فى آن واحـد . واستطاع فيشته بفلسفته الحية أن يبعث أمته من رقادها ، وان ينفخ فيها روح الجهاد » . فرح وابتهج ، كأنما وجد حياته مفردة نقية ، وسط ركام الفكر الفلسفى .

وإذن ، لقد وجد « المؤلف » ، صاحب الجوانية ضالته . بمعنى آخر وجـد ما كان يبحث عنه من القربة الى الجامعة ؛ البحث عن فيلسوف الوعى ، يدعم به رؤاه ، هو ، الجوانية . وكأنى به ، حينما ابتغى للجوانية مشـابها الى حد ما فى الفكر الغربى ، فوق ما لها من التراث الاسلامى العربى ، وجد ذلك المشابه فى الفكر الألمانى فى مفتتح القرن التاسع عشر ، وعنـد فيشته على وجه خاص .

وباقى الباب الأول من الكتاب ، لا يخرج عن كونه تدعيما لبوادر الجوانية ؛ فى صـورة يوميات وسوانح ، وان كانت مطوية . وهى على جانب كبير من الأهمية . فاذا صح لنا ان نقول : أن الترجمة الذاتية هى البعد الجوانى للانسان ـ ان جاءت صحيحة غير فاسدة بالأكاذيب ـ فاليوميـات أو السـوانح أو الاعترافات التى يكتبها المرء تحت ضوء هذا البعد ، لها بمثابة النقاب الذى يكشف عن ذات الانسان ، كاتبها ، يوما بعد يوم . ولهذا يقدم لنا المؤلف اخصب ما يقدم فى الفكر الحديث والمعاصر ، اذ يقدم لنا « اليوميات الجوانية » و « السـوانح المطوية » للكشف عن ذات نفسه وللتجربة الروحية التى خاضها ، وتدعيما لرؤياه الداخلية . ولا مفر من الاعتراف : أن الجوانيـة لو خلت يوما من تلك اليوميات او التأملات أو الرؤيا الداخلية للتجربة الجوانية لخلت من أقـدر ما فيها ، واخصبه ، وانقاه فهى فى صميمها روح مستنبطة من الداخل . ولا تظهر تلك الروح الا بالانعطاف الذاتى مع النفس وان بدا لنا وكأنه نـوع من العزلة . وهكذا فعل سـقراط ، وافلاطون ، واغسـطين ، وديكارت ، وكانط ، وهوسرل ، وغيرهم كثير .

والذى كان يشغل بال المفكر ، او صـاحب الجوانية فى تلك اليوميات ، هو ما كان يشـغل شباب جيله . وذلك من روح الجهاد ، والمطالبة بالتعليم والثقافة ، ومحاولة تدعيم روح الاخاء . ولاشك ، ان صاحبنا قد تأثر اشد التأثر بالاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق ـ كغيره ـ لدرجة فيها كلما حاول ان يجد لشخصية صورة وصفه بصورة القديسين .

ولا نخرج من الباب الأول ، أو ما يحلو لى تسميتة « بالمدخل » الذى انصهرت فيه تجارب

المؤلف ، واعتورها الكثير ، الا ونحن وسط اذابة فيها الشرق والغرب ممتزجان . فحياة محمد عبده فكرية عريضة ، وحياة خصبة فكرية ايضا مــع ديكارت .. وهكذا مـــع اكثر المفكرين . فاســتطاع ان يوفق بينهما فى تنــاسق عميق يدعم به ثياب الجوانية الجديد . او كانما الرحلة الفلسفية الطويلة ما كان لها ان تبدأ الا وفكر الشرق والغرب بين جنبيها . وهذا ما يمتاز به صاحب الجوانية ، بحق . فى قدرة وذهن وقاد ، واسلوب رصين ناصع متين وفهم وفكر متأمل عميق . وما كانت الجوانية ، واى جوانيـــة ، بمستطيعة ان تعبر عن نفسها لولا هذه الملكات .

— ٢ —

بعد المدخل الموضوع . والموضوع الذى يلف هــذا الكتاب حوله هو : الجوانية . من حيث الاسم ، فلا غبار على لفظ « الجوانية » . فقد استعمل من قبل وان كان لم يقم عليه فلسفة مترامية الاطراف والابعاد ، كالجوانية الجديدة .

لكن : « ما الجوانية ؟ » .

الكتاب عبارة عن محاولة اجابة على هــذا الســـؤال . قلت : الكتـاب محاولة ، وليس بالاجابة الكاملة المغلقة والنهائية . حتى لا ندخل فى اطار ونسق ومذهب . فهــذا ماينفر منــه صاحب الجوانية ، كما ينفر من المذاهب المغلقة والتى رسمت حدودها مرة واحدة . والجوانية ليست ايضـا من صاحبات التسـاؤل ، ولا من هاويات الاجابة . فلا اجابة — فى رأينا — نهائية ايضا ومطلقة . وعلى هذا ، فالجوانية « طريقة فى التفلسف » . « تفلسف مفتوح على النفس والدنيا . متعرض لنفحات السماء فى كل لحظة ، وطريق مبسوط أمــام الوعى ينتظر السالكين الى يوم الدين . تحـاول ان ترى الأشخاص والاشـياء رؤية روحية . بمعنى ان تنظر الى المخبر ولا تقف عند المظهر . وان تلتمس الباطن دون ان تقنع بالظاهر . وان تبحث الداخل بعد ملاحظة الخارج . وان تلتفت دائما الى المعنى والكيف والى القيمة والى الماهية والى الروح من وراء اللفظ والكم والمشــاهدة والعــرض والعيــان . » . وكل ذلك بقرب من الرؤية الروحيــة ، او الحــدس القــلبى ، او الوعى الباطنى ، او الائتناس « الجوانى » .

وذلك هو الذى سيبقى للجوانيــة بحق : طريقتها فى التفلسف او المنهج الجوانى الخاص بها . والذى تتبعه لالتماس الحقيقة ، وبحوث الذهن . فكثير من الفلسفات قد تذهب مذاهبها او تنحل او تستجد ولا تبقى منها الا مناهجها . كذلك كان افلاطـون وديكارت وكانط . فعماد الجوانية ، اذن ، فى منهجها . ومنهجها لايلتمس الحقيقة الا وراء المظهر . فلا يستريح سقراط ، مثلا ، ان يرى رجلا وسيما بدينا دون ان يسأله : يا هذا ، كلمنى حتى اراك . فلا يستريح سقراط حتى يرى ما وراء هذا الرجل . ما وراء مظهره من عقل ، وقلب ، وذوق . وهكذا الجوانية . وقد ساقت هذا المثـل دليلا على طريقتها او منهجها . وهى فى هذا ، تستند على تزكية الوعى وممارسة الحرية النفسية . وتسعى الى تعميق فهمنا للمقاصد والمعانى والقيم . وهى ، بهـذا الاعتبار ، فلسفة حياة تمارس الوظيفة الفلسفية على الاصالة . كما يقول المؤلف : « التماس اللب والمبدأ والكيف والحق . بيد انها لا تقيس حياة الانسان الفكرية والعاملة بالمقاييس البرانيـة ، والتى تفرقنا فى المادية والحتمية . بل ان حياتنا الجوانية كالسيمفونية الموسيقية يلزمنا التعاطف معها . وعليـه لا نستطيع سبر اغوار الحيـاة الجوانية . الا بأن نحياها بأنفسنا . وان نتحمل مسئولية معاناتها .

ولنا بطبيعة الحال ان نتساءل : هل الجوانية تدفعنا الى ان نمارس هذه الحياة الجوانية فى عزلة عن العالم والآخرين ؟ وان كان ، الا ننطوى على انفسنا الى ابعد حد ؟ . بل اكثر ، الا نجد انفسنا ، بهذا ، نتجه الى عالم مغـلق ؛ عالم الاجترار الذاتى . او التفكير الاجترارى بتعبير مونيه ؟ . اقول ذلك ، لأن الانســان لا يعرف نفسه الا فى لجـة سقط فيهـا وســط الوعى الشـــامل ، حاضن للأنا ، والنحن ، والغير ، والعالم .

لهذا ، ترى الجوانية أنها : اذ تروم معرفة

الأشخاص والأفكار والأشياء ، انما تقوم بضرب من الائتناس ، والتعاطف والاتصال المباشر اى الجواني ، وان تطلب ذلك كله بذل الجهد والخلوة ، كما فعل الغزالى ، وديكارت ، وريلكة وياسيرز . وحتى تؤدى هذه الرؤية الى المعرفة . وهذه الرؤية الروحية الفريدة ، التى من شأنها أن تجتاز مرحلة الظواهر ، وتتخطى نطاق البرانية انما تكتسب جوانية هى جوهرها وماهيتها . وتلك هى أولى خطوات الفكر الميتافيزيقى ، حينما يحاول مجاوزة « المظهر » الى ما وراءه . وليس ضروريا — فى نظرى — ان يكون اجتيازا راسيا ، فكثيرا ما كان اجتيازا افقيا . ينطوى على ضرب من الرؤية الواعية . وهكذا فعلت الجوانية ، وأن تميزت رؤياها «بعين البصيرة » كما يقول الغزالى ، الا انها رؤية فنية حدسية يلتقى فيها كانط ، وشلنج والعقاد .

وينتفض سؤال فى قلب الجوانية . هل تزعم الجوانية لنفسها امتلاك الحقيقة ، بهذا المنهج وبهذه الرؤية ؟ . لا الجوانية ولا صاحبها يزعمان ذلك الامتلاك . لأن الحقيقة متى امتلكناها ، أو خيل الينا اننا امتلكناها ، فقدت مشروعيتها فى أن تكون حقيقة ؛ اى ان تكون هى القوة الروحية التى تستحث الانسان على الابتكار المتجدد الواعى الموصول الى ما ينبغى ان يكون . هذا هو الذى تراه الجوانية . والحق يقال : ان محاولة امتلاك الحقيقة فيه مايفرى ، كامتلاك الأنا المطلق ، أو الروح ، أو الحرية المطلقة . وعبثا ما نحاول . وان كان فى المحاولة شرف . ولن نكف ، ولن نمتلك ؛ والا كف الكون عن الدوار الميتافيزيقى الأبدى . ولهذا ، راى صاحب الجوانية أننا — رغم ذلك — نمتلك امكانيات ، وان كانت امكانيات لا محققة . بيد أن بها كل القوى والطاقات . قد نحققها فى المستقبل . وقد لا نحققها ابدا . والامكانيات اللامحققة هى « ماهية الانسان » . ويتأزم حال الانسان حينما يدرك ان له عالمين : عالم المتحققات بالفعل ، وعالم الامكانيات التى لم يحققها بعد . فيتأرجح على حبال الغربة المروعة . وتشتد أزمة الانسان ، ويشتد تأزمة . فما الذى تقدمه الجوانية لهذا؟.

الجوانية ، فلسفة تفاؤل ، وانتصار وخلاص . ولهذا نرى أن القوة الحقيقية فى العالم هى قوة الروح ، والنفس . وبالتالى تطالبنا بالسيطرة على انفسنا ، فهذه السيطرة هى المرادف للحرية . « لأن الحرية عبارة عن وعى يصاحبه فهم . واذا اراد الانسان أن يطلب هذه الحرية فلن يجدها فى شىء من الأشياء الخارجية ، بل فى نفسه التى بين جنبيه ، وواجدها فى أمر مطلق مستقل عن كل ما عداه . وهو قدرته على الحكم ، اى استطاعته القبول أو الرفض أو التوقف عن اطلاق اى حكم » .

ومن هذا الطريق ، تعرج الجوانية ناحية المثالية ، والفلاسفة المثاليين . وذلك بايمانها أن القوة الحقيقية للانسان هى قوة الروح أو المثل الأعلى ، بمعنى أصح « المثالية الروحية » . وعليه أخذت الجوانية ، وصاحبها ، تعنى برسم الصورة الكاملة سعيا الى المثل الأعلى ، فى الفكر والحياة . بلا استقلال للفكر عن الحياة ، أو الأنا عن الآخرين . انما بزواج كليهما بالآخر . مثالية تسير فى الطريق الكانطى ، مصاحبة فيشته وديكارت .

— ٢ —

قال المؤلف فى تقديم الكتاب : « والجوانية اصول عقيدة ، وفلسفة ثورة . عقيدة مفتوحة تأبى الركون الى مذهب أو الوقوف عند واقع . وتتجه الى المعنى والقصد . وتدعو الى العمل البناء مؤسسا على النظر الواعى . وتلتفت الى الانسان فى جوهره وروحه وتدرسه فى حياته الداخلية لتنفذ الى ما هو فيه أصيل . وفلسفة ثورة : لأنها نابعة من اعماق هذه الأمة الثائرة ، لتحقق ايدلوجية تربط بين ماضينا ومستقبلنا والاعداد له . ومن ثم تنشد المثل الأعلى بلا ترخص فى السعى اليه . وأن ارادة التغير والطموح هى القوى المحركة للتاريخ » .

ونتساءل نحن : من أين استقى اصول العقيدة ، وأبعادها ؟ الاجابة الواضحة : من الأخلاقية الاسلامية واللغة . الأخلاق الاسلامية المتمثلة فى دعوة الرسول من جهة الايمان والاخلاص . وحضور القلب عند الغزالى .

والحب عند الصوفية وأصالة الرؤية والحرية عند العقاد . وأن الدين هو « البعد الجوانى للانسان » . أما اللغة ، واللغة العربية خاصة ، فأصول العقيدة ، أيضا مستمدة منها . فقد تمثلت فى اللغة العربية خصائص الجوانية : مثالية ، حضور جوانى ، وعى ، فهم .. الخ. فاهتم بها . ولكنه ارتأى أن اللغة هى أقوى عوامل الوحدة . وهو رأى عميق دقيق ، لاشك ، يأخذ بالنظرية الفشتية للغة . ونحن نقبله . لكن باضافة كلمة « من » . فاللغة « من » أقوى عوامل الوحدة . وليست أقواها . فهناك غيرها. وهى — أى اللغة — لغات اتفاقية . ودلالة تعبيرية عن الوجود ، وليست هى الوجود ذاته. وبالتالى يسبق اللغة الوجود . والوجود الحق — فى رأينا — الوجود الشعورى : الشعور المشترك بالوحدة . وحيث يكون هذا الشعور يكون من السهل خلق اللغة . وكلما عمق هذا الشعور عمقت اللغة . فتصبح اللغة دلالة على جوانية الأمة (الشعور بالوحدة) وليست على الكلمات التى تربطها. كما نقول أن وجود الجوهر أولا ، والمخبر والباطن ، ثم نحاول وصف هذا كله باللغة ثانيا . وبالتالى تصبح الأمة مجتمع نفوس ، وارواح وجوانيات قبلما تكون مجتمع كلمات .

والجوانية كما هى أصول عقيدة ، أيضا فلسفة ثورة . بناءة متفائلة . تغوص فى روح الاشتراكية العربية الجديدة بغرض استكشافها. لتحمل رسالة الخير والحق والسلام ، مزكية الشعور بالمثل الأعلى .

— ٤ —

حسنا : هانذا قد عرفت الكتاب والفلسفة. وقمت بضرب من التعاطف والاتصال فى هذه الرحلة الفلسفية الطويلة . لكن التعريف أتى ناقصا ، من وجهة نظرى . فالتعريف الكفيل بعدم النقص ، لهذه الفلسفة الجديدة ، يكون بالعرض الشامل المفصل لها . وشبكها بالتيار المتصل من محمد عبده وعباس العقاد فعثمان أمين . ثم بمعارضته بالمذاهب والتيارات الأخرى . حتى يكون الكل فى الاطار . فليس اكثر خيانة لفكرنا المصرى المعاصر من عدم فهم ودراسة التيارات الأساسية لهذا الفكر . التيار المتجسد « نحو فلسفة علمية » والآخر المعتبر ان « التصوف الثورة الروحية فى الاسلام » والثالث الآخذ العقل ، والمثال ، بالاعتدال فى « الفلسفة الخلقية » والفلسفة بوجه عام ثم « الجوانية » مع عدم اهمال المدارس والاتجاهات المنبثة فى ارضنا اليوم .

اعترف ، اذن ، بالتقصير . بيد انى ادعو ان يدلى الكل برأيه . ويحزم جدله . حتى تتضح الجوانية ما لها ، وما عليها . وانا عليم بأن الحقيقة متناثرة . كما هى فى مصر متناثرة. وأنها لا يمكن أن تؤخذ مرة واحدة والى الأبد . فهى كالجمانة الطلقة التى تبهرك برؤياها من بعيد ، حتى تقترب ، فتنفلت من أى تعريف أو تجميع ، كما تتملص من أى تحديد . والجوانية كذلك من حيث كونها فلسفة مفتوحة. فهى لا تعرف بالمعنى المنطقى الجديد ، للحد والتعريف ، حتى لا تنغلق على نفسها ، أو يصيبها الجمود . فمصر الفكر قد ثارت على الجمود ، كما ثارت على القيود . وهى على الطريق دائما ، كما يقول صاحبها . فلا تعرف الوقوف أو الانغلاق ، بل هى محاولة للتعبير عن ايمانها العميق بضرورة الميتافيزيقا وكرامة الانسان وسلطان الأخلاق . وذلك بلا تنافر بين الفلسفة والعلم ، أو الفكر والواقع .

وعليه ، فالكتاب يحتاج منا للدراسة ، والفهم والتعاطف معه بالبساطة . والهدوء وتكاتف الجهود . وهو يحتاج لهذا كله . فهو دعوة بدات تنساب وتسرى فى نفوس الكثيرين. وربما هى حركة فكرية ، اصيلة ، ذات اتجاه متصل منذ الأستاذ الامام محمد عبده ، فالأستاذ العظيم العقاد ، فالأستاذ الدكتور عثمان أمين .

ولا شك ، أن فلسفة ، كهذه ستحتاج منا الى النظر الكثير . مع وضد. فليس بالشيء الهين

اكتمال نظرة فلسفية فى مصر . وطرح كتاب للمكتبة العربية يحمل هذه النظـــرة بالفلسفة الجوانية .

وبعد ، فانى لعلى يقين من أن الجوانيـــة ستلف حولها الآراء . ربما آراء يلفها الخطأ . أو يصونها الصواب . شأنها فى ذلك شأن مختلف الفلسفات . انما حينما نقترب منها واعين لها ولفكرنا ، نكون قد قطعنا الطريق اليها ، والنصف الآخر يهديه المحيط .

فتحى فوده

سطور من كتاب

أبو نواس

« وكان للامين كابيه الرشيد تولع بالغناء ، مع الفارق فى وقار الوالد ونزق ولده . وكان يهيـــا له فى قصر الخلد مجالس غناء يتغنى فيها ، فيرفع له دكان عال يفرش له ويبسط عليه بساط زرعى ، وتطرح عليه نمارق وفرش فى لون البساط ، ويصفف له من آنية الفضة والذهب والجوهر أمر عظيم . وتكون قيمة جواريه قد هيأت له مائة جارية صـــانعة ، فيصـــعدن اليه عشرا عشرا بأيديهن العيدان يعزفن عليها وهن صاعدات اليه ، وحين يستوين على الدكان يندفعن فى غناء لحن من اللحون بصوت واحد ، ثم ينزلن وتتقدم عشر غيرهن ، وهكذا دواليك فى جو فاتن ساحر بما يتمايل فيه من القدود المليحة وما يتجاوب به من اللحون الفصيحة .

وكان يجزل العطاء لاســاطين الغناء فى عهده امثال اسحق الموصلى ومخارق وعلوية وغيرهم ، حتى ليروى انه استقدم ابراهيم بن المهدى عمه فانحـدر اليه فى زورق الى قصره ، وغناه صوتا طرب له الأمين فامر ان يوقروا له زورقه ذهبا .

وكان ابراهيم بن المهدى يغنى الأمين احيانا بشعر ابى نواس فى مدحه كقوله :

يا كثير النوح فى الدمن
لا عليها ، بل على السكن
رشـــأ لولا ملاحتـــه
خلت الدنيـــا من الفتن
كل يوم يســـترق له
حسنه عبـــدا بلا ثمن
يا أمين الله عش أبـــدا
دم على الأيام والـزمن

ولقـد استخف الطرب الأمين حتى قام من مجلسه ، واكب على عمه يقبل راسه . فقام ابراهيم من مجلسه يقبل اسفل رجليه ، وما وطئتا من البساط . فامر الخليفة له بثلاثة آلاف درهم . فقـــال ابراهيم : « يا ســـيدى قد اجزتنى الى هذه الغاية بعشرين الف الف درهم » . فقال الأمين : « وهل هى الاخراج بعض الكور ؟ »

دراسات فى الرواية المصرية

تأليف	الناشر
الدكتور على الراعى	الدار المصرية للتأليف والترجمة
	٢٧٢ ص ١٤×٢٠ ث ١٢

يتضمن كتاب « دراسات فى الرواية المصرية » عشر روايات هى حديث عيسى بن هشام للمويحلى ، وزينب لحسين هيكل ، وسارة لعباس العقاد ، وابراهيم الكاتب لعبد القادر المازنى ، وعودة الروح لتوفيق الحكيم ، ودعاء الكروان لطه حسين ، وقنديل أم هاشم ليحيى حقى ، وسلوى فى مهب الريح لمحمود تيمور ، ومليم الأكبر لعادل كامل ، وثلاثية نجيب محفوظ .

والخط الرئيسى الذى يجمع هذه الروايات هو المنهج النقدى الذى اتبعه المؤلف ومراعاته أن يمثل مراحل تطوير القصة .

ولقد اتبع الدكتور الراعى فى أغلب هذه الروايات العرض والتحليل ثم مناقشة الرواية من الناحية التكنيكية .. كما يلاحظ أيضا مقارنته هذه الأعمال بمثيلتها فى الأعمال الغربية . وسأكتفى الآن بعرض بعض من هذه الروايات التى تضمنها الكتاب لتبين منهج المؤلف .

ففى حديث عيسى بن هشام يجيب على عدة أسئلة ما تلبث أن تقفز الى ذهن القارىء عند قراءة هذا الحديث .

ولقد أجاب على سؤال رئيسى يتردد دائما وهو هل الحديث رواية أو مقامة ؟ .

ولقد دلل على أن « الحديث » يتمتع بالصفات الروائية وانتهى أخيرا الى نتيجة نجملها فى قوله :

« ان هذا التطور الذى يحدث فى هذه الشخصيات هو أحد العناصر الهامة فى كل الفنون التى تقوم على القصة مثل الرواية والمسرحية .. وهذا العنصر ، الى جانب تكرار ظهور الشخصيات الأخرى فى أجزاء كثيرة من الكتاب بالاضافة الى ان الكتاب يعالج قصة واضحة المعالم تبدأ بقيام الباشا من الموت وتتطور من خلال حركة مادية فى أنحاء القاهرة وباريس وخلال حركة فكرية تتغير أثناءها نظرة الباشا الى الأشياء ، ثم تنتهى الحركتان المادية والفكرية بخاتمة مقنعة .. كل هذه العناصر تبرر أعتبار « حديث عيسى بن هشام » البداية الأولى للرواية المصرية » .

وفى قصة زينب يقدم عرضا لأحداثها محللا لها حتى يلم القارىء بالقصة ويستطيع الحكم على نقده .. كما يذكر أن فيها صراعا بين الرواية والفكر الفنى ويناقش هذه الظاهرة المسيطرة على القصة مناقشة نخرج منها وقد اقتنعنا بانتصار العنصر الروائى فيها .

فيقول معللا . وجود النثر الفنى :

« اذا فهمنا هذه الحقيقة وقدرنا أيضا أن « هيكل » لم يكن يبغى من عمله هذا مجرد التعبير الفنى عن نفسه ، بل كان أيضا تواقا الى تمجيد ريف بلاده ونصرة قضية الفلاحين فيها على البشوات والتنفيس عن حنين عارم شعر به نحو بلاده .. اذا فهمنا هذا كله وقدرناه استطعنا أن

تتبين لماذا تتواجد أشكال فنية كثيرة فى هذا العمل .. أكثرها يتنافر بعضه مع بعض ، وأن لم يخل الأمر من مواضع قليلة تتعايش فيها بعض هذه الألوان ، بل قد تنسجم أحيانا » .

ومن الملاحظ أنه حريص فى اصدار أحكامه حتى لنشعر بأنه لا يلقى الأحكام .. كما يعتمد على مناقشة الأمور مناقشة منطقية يخرج منها بتقرير النتيجة التى يريدها والقارىء مقتنع بها كذلك .

ويتمثل ذلك فى مناقشة عنصر الطبيعة فى قصة زينب ومدى نجاح هيكل فى استخدامها فنراه يقدم لنا دراسة عن دور الطبيعة عند الرومانسيين وينتهى أخيرا الى حكمه فيقول :

« ها هنا نجد عيب نظرة هيكل للطبيعة واضحا تماما لا يتركز هذا العيب فى أن المؤلف يعلى من شأن الطبيعة ، بل فى أنه ينظر اليها نظرة جامدة مفتعلة ، وينشوء بينها وبين شخوصه علاقة خطابية زائفة لا حس فيها ولا هى تسمح بوجود الفعل ورد الفعل الملازمين لكى تتخذ الطبيعة سمة الشخصية الفنية .. » .

وفى « سارة » يقوم بتحليل القصة ويناقش بناءها الفنى مركزا على شخصية سارة باعتبارها البطلة الرئيسية فى القصة والعمود الفقرى الذى يمسك القصة ويجعل لها أهمية كما يقول « الحق أننا لولا شخصية سارة والصورة الفاتنة التى يرسمها لها العقاد فى روايته لقل اهتمامنا بهذا العمل الى حد كبير .. » . كما يبرز رأيه فى سارة التى تمثل الشخصية الرئيسية لأنها « هى التى تنقذ العمل من أن يكون مجرد دراسة تقريرية جافة لموضوع الحب والغيرة والشك وهى وحدها التى تبقى فى ذاكرتنا بعد أن نقرأ الرواية وتمضى على قراءتنا لها أيام وسنون .. » .

ويقول فى « عودة الروح » بعد أن يقدم عدة أسئلة عن القرية التى يمكن أن يعيش أهلها وكأنهم يتعبدون ويتألمون وكأنما يقدمون قربانا لاله وعن الأسرة التى تنشغل بفتاة :

« والجواب على هذا كله هو أن هذا الذى يحدث ولا يلائم الواقع ، لم يقصد به أن يلائم فى المحل الأول ، انما أراد به المؤلف أن يجىء تعبيرا عن رؤيا رآها للمجتمع المصرى ، ولأفراد بعينهم من أفراده فى فترة حاسمة من فترات انتقالهم جميعا ، وهى رؤيا فيها الواقع وفيها الحلم ، فيهـا التصوير المباشر للمجتمع ، وفيها الخيال الصرف ، وفيها الواقع الذى تتحكم فيه فكرة كبيرة ، فتغيره أو تطوره أو تعيد تشكيله ، ليكون للفكرة اقرب مثالا وأكثر تمثيلا » .

وفى « دعاء الكروان » يناقشها من الجانب الأخلاقى والتعليمى باعتبار هذا الجانب الأساسى الذى ترتكز عليه الرواية ويعبر عن ذلك فى قوله :

« ناقشت دعاء الكروان حتى الآن على المستوى الأخلاقى التعليمى ، وقلت أن هذا المستوى هو أساس الرواية ، ولكنه ليس كل ما فيها ، فمما لا شـك فيـه أن للعمل معنى أنضج وأعمق مما قدمت » .

كما أنه يبرز العنصر الميلو درامى المتمثل فى صراع الفتاتين ضد المجتمع فكان الموت جزاء الأولى لأنها لم تتسلح فى صراعها بالعلم أما الثانية فتنتصر فى النهاية لأنها تسلحت بالمعرفة وقوة العقل .

كما يبرز المنحى الذى اتبعـه المؤلف فى التأليف : « ولم يقل احد أن « دعاء الكروان » تنحو منحى الواقعية ، وانما هى رواية شعرية خطابيـة لا تأبه كثيرا ان هى لم تشاكل الواقع ولا هى تصاب من جراء هذا بكبير ضرر .. ومن الواضح أن كاتبها قد قصـد أن يتناولها بهذا الأسلوب دون غيره ، فمن الشطط اذن أن نحاسبه فى غـير ميـدانه ، وان نطبق على عمله مقاييس لا يستدعيها هذا العمل استدعاء تلقائيا » .

من هذا نرى أنه يراعى الأسلوب الذى اتبعه المؤلف .. وعلى أساس أسلوبه وطريقته التى صب فيهـا عمله الفنى يحاسبه طبقا لقواعد الأسلوب الذى سار عليه وبعد مناقشة الظاهرة الشعرية التى برزت فى قصة الدكتور طه حسين يخرج من هـذه المناقشة الى تقرير الحكم الذى يريد أن ينتهى اليه فيقول :

« علينا اذن أن نقرر منذ البداية أن « دعاء

الكروان » رواية شاعرية رومانتية وليست واقعية نثرية ، وانها تميل ميلا خاصا الى الخطابة وأحاديث النفس الطويلة الرنانة » .

وفى مليم الأكبر يكتفى بالعرض والتحليل فقط مقارنا بينها وبين بعض الأعمال الغربية مثل بيت الأرامل « لشو » ، وعدو الشعب « لهنريك ابسن » .. كما يربط بينها وبين الأعمال المصرية مثل « قنديل أم هاشم » و « زهرة العمر » .

واخيرا فمن هذا العرض السريع لبعض الروايات التى تضمنها الكتاب ندرك أن المؤلف قدم دراسته بدقة وأناة يدلان على دراسة واعية وثقافة واسعة ، قدمها بعيدة كل البعد عن الذاتية وقريبة كل القرب من الموضوعية المعتمدة على الأسس النقدية العلمية .. وذلك لأنه يقدم كتابا يضم مراحل تطور فن القصة تبدأ بحديث عيسى بن هشام وتنتهى بثلاثية نجيب محفوظ آثر فيها أن تمثل هذه المجموعة اتجاهات أدبية مختلفة فمن رومانسية فى « زينب » الى رمزية فى « قنديل أم هاشم » وواقعية فى « سلوى فى مهب الريح » الى ذهنية فى « عودة الروح » .

هذه الدقة جعلته شديد الحرص فى اصدار احكامه ووزنها بميزان الناقد اليقظ الأمر الذى دفعه الى الاستدلال على كل حكم بشواهد تدعم حكمه .. ولقد أفصح المؤلف عن دقته هذه وحرصه فى معرض حديثه عن الثلاثية فنراه يعلن قائلا « وانا أحاول أن أزن كلامى بدقة قبل أن أخطه على الورق ، أعالج نفسى علاجا شديدا ، وأحذرها من الاندفاع وراء الحب والاعجاب اللذين أشعر بهما نحو هذا العمل » .

فمن هذه الكلمات نستشف منهجه الذى اتبعه فى دراسته كما ذكرت وهو الحرص وضبط النفس من الانسياق وراء الأعجاب والحب .

وهذا البعد عن التأثر الذاتى والقرب من الموضوعية جعله يقبل بعض الهفوات الفنية فى القصص الذهنية أى القصص التى يغلب عليها الفكر مثل قصة « ابراهيم الكاتب » ، و « عودة الروح » .

ورغم ما اتفق فيه مع الدكتور الراعى فى كثير من أحكامه فانى اختلف معه فى نقاط ثلاث أولها : تحليله لظهور الثورة فجأة فى « عودة الروح » وقبوله لها ، وثانيها : أعتباره قصة « قنديل أم هاشم » رواية .. وثالثها : عرضه لقصة « سلوى فى مهب الريح » وتقريره أن سلوى خاطئة وهذا الخطأ بارادتها وليس نتيجة للظروف المحيطة بها .

ففى عودة الروح يأخذ على هؤلاء الذين ينكرون على توفيق الحكيم تفجيره الثورة فجأة دون تمهيد فنى سابق يهيىء ذهن القارىء لها ومن هؤلاء الأستاذ يحيى حقي الذى عبر عن ذلك قائلا فى « فجر القصة المصرية » : « وجاءت الخاتمة باردة تافهة ، ليس فيها حرارة الباطن ولا عظمته فصورة الثورة باهتة مقتضبة ، ويمكن أن يقال انها دخيلة على القصة وثانوية بالنسبة لموضوعها .. لم يقل لنا كيف اشتركت العائلة فيها » .

ويقول الدكتور الراعى ردا على مثل هذه الآراء بقوله « والذين رأوا فى عودة الروح جانبها الواقعى فقط .. قد ساءهم كثيرا أن تندلع نيران الثورة فجأة وبلامقدمات أو تحضير وساءهم كذلك أن الثورة ليست موجودة بالرواية من أولها الى آخرها وأن الأبطال لا يساهمون فى التحضير لها مساهمة خارجية فعالة ، بل يكتفون بالاشتراك فيها حينما تشب نارها .. ورد عودة الروح على هذا ، كما نستشفه من ثنايا العمل .. هو أن الثورة قد كانت موجودة فى أرواح المصريين جميعا ، وانها انما كانت تنتظر اللحظة المواتية لتنفجر ، انها موجودة فى أرواحهم كما توجد الحقائق الأزلية فى نفوسنا » .

وهذا التعليل الذى يذكره الدكتور الراعى تعليلا لا يتمشى مع طبيعة العمل الفنى ومتطلباته ولكنه ارتضاه من الناحية العلمية التى انتهجها فى تحليل هذه النقطة وهى أن الثورة موجودة فى أرواح المصريين وليست فى حاجة الى مقدمات فهذا التعليل نقبله فى واقع الحياة وأن كنا نعرف انه يسبق قيام الثورات ترتيبات خفية تتبلور اخيرا فى مجموعة من الناس تخرج الثورة الى عالم الوجود والحقيقة ..

وعلى هذا الأساس العلمى ارتضى الدكتور

ظهور الثورة فجأة وأرتضاها فى العمل الفنى على أساس ان الفكرة تسبق العمل كما يقول ، ولكن هذا التعليل لا ينطبق على الرواية من الناحية الفنية اذ أنها تعتمد على مقومات فنية يجب ان يتبعها القاص ، واذا خولفت هذه المقومات فان هذه المخالفة تعتبر عيبا فنيا .. فظهور الثورة فجاة هكذا دون تمهيد لتهيئة القارىء ذهنيا لما سيحدث فى المستقبل يعتبر ضعفا فنيا بصرف النظر عن أن الرواية يهتم صاحبها بفكرة معينة يريد أن يبرزها مما يجعله منصرفا اليها دون الاهتمام بالشكل العام للرواية .

كما نلمس أحيانا أن المؤلف يقف محايدا يلتزم العرض والتحليل دون ابداء الرأى .. ففى قصة « ابراهيم الكاتب » نراه يغفل التعليق على لغة الحوار التى أتبعها المازنى بل يكتفى بقوله « كذلك نراه فى بعض المواضع يجرى الحوار العامى على لسان أبناء الشعب بينما يبقى اللغة الفصحى للسادة » .

وموقفه الحيادى هذا من اللغة . يلتزمه فى جميع الروايات التى عرضها الا قصة زينب التى تحدث فيها عن أسلوب هيكل .

وأما فى « قنديل أم هاشم » فانه يعدها رواية وليسمح لى ان أوجه اليه سؤالا : كيف اعتبر هذه القصة رواية ؟ .

« فالرواية » يعالج فيها المؤلف موضوعا كاملا أو أكثر .. زاخرا بحياة تامة واحدة أو أكثر » . وليس لدى رد الا ان اقدم ما قاله الأستاذ يحيى حقى صاحب القصة نفسها فى مجلة الثقافة عدد ٧١ : « أحب أن اقول أولا أن قنديل أم هاشم ليست رواية وليست قصة قصيرة فهى بين هذه وتلك » .

فماذا اقول بعد هذا .. وصاحب القصة قد قال كلمته ..

وفى عرضه لقصة « سلوى فى مهب الريح » يبرز سلوى فى صورة الخاطئة المتعمدة ـ صورة الانسانة التى تسير فى طريق الشر بارادتها .

فلا تستحق الدفاع عنها .. ولكنى بعد قراءة القصة أحسست أن سلوى كان مجنيا عليها .. نتيجة للظروف التى تحيط بها فأم فاسقة وباشا يملك الذهب الذى يذهب بريقه بالعقول وتضعف أمامه الارادات وخصوصا فى ظروف الفقر والحاجة .. كما أن المؤلف الأستاذ محمود تيمور جردها من كل الأسلحة التى تحميها شر السقوط ، فالسلاح الأول وهو « حمدى » سلاح كليل لا يقطع عرقا ولا يسيل دما فهو انسان فقير مريض لا حول له ولا قوة ، والسلاح الثانى هو الدكتور فهيم سافر هو الآخر بعد تعرفه عليها الى الخارج . وهكذا بقيت سلوى وحيدة فى الميدان تواجه أمها وطعمها والباشا وجشعه . ورغم ذلك لقد قاومت مقاومة شديدة ، ونلمس هذه المقاومة فى ردها على أمها عندما جاءت تطلب منها مقابلة الباشا الذى حضر للزيارة فى المنزل فما كان منها الا أن قالت :

ـ أمى أضرع اليك .

ـ أنا التى أضرع اليك أن تكونى هادئة .

فقالت : انى هادئة .. هادئة .. لقد اكدت لك ذلك ولكننى لن ألقى الباشا . والموقف الثانى الذى يبرز قوة مقاومتها بعد كشفها لنوايا الباشا وهو عندما كانت سلوى فى القصر تمرض أبنته (سنية) صديقتها العزيزة وجاءت أمها بحجة زيارتها وقابلت الباشا فى الحجرة منفردين وسمعت سلوى حديثا بينهما ورأت الباشا يمد يده بمبلغ من المال ... فما كان من سلوى الا ان لحقت بأمها بعد انصرافها . ولنستمع الى ردها على أمها فى كلمات قوية واضحة :

ـ مهما يبذل الباشا من محاولات فان جهده ضائع .. لن يستطيع أن يشترينى بهذه المنحة التى منحك أياها صباح اليوم ..

كما أن صداقتها لسنية لم تكن هادفة الى رسم خطة الوصول الى المجتمع الأرستقراطى كما يقول الدكتور الراعى ولكنها كانت صداقة خالصة كما تقول سلوى نفسها « فما أسرع ان نبتت بيننا الألفة وما هو الا وقت قريب حتى اصبحت لى صديقة مخلصة أبادلها الصداقة والاخلاص » .

ولعـــل فى ذلك ما يقنع الدكتور الراعى ان سقوط سلوى كان نتيجة للظروف المحيطة بها كما ذكرت .. وبذلك يصل مؤلف القصة الأستاذ محمود تيمور الى غايته المنشودة وهى اشراك القراء مع سلوى وجدانيا وعطفهم عليها لأنهـــا مجنى عليها والجانى هو المجتمع . أما اذا كانت بهذا التصوير الذى قـدمه الدكتور الراعى فأى عطف واى تجاوب يحس بهما القارىء نحوها .. وما يزيد فى الاحساس بالعطف هو ما كان يراود سـلوى بأن تصبح شريكة حيـاة الباشا ولكنها كشفت نواياه الخبيثة التى قاومتها بايجابية ولكن لم تستطع المقاومة بعـد موت أمها وزوجها وقد تلفتت فوجـدت ، نفسـها وحيـدة بلا مال ولا متاع ولا صديق نعتمد عليه .

وأخـيراً فالدكتور الراعى قـدم لنا دراسة نقدية تعتز بها المكتبة العربية .

ابراهيم عيسوى سعفان

سطور من كتاب

« ما الذى غير اتجاه العقل الانسانى فى القرن التاسع عشر ؟ .. الذى غيره هو العلم نفسه ، لأنه عرف حدوده وكفكف من غروره ، فهو اليوم يدعى ويتواضع كثيرا فى دعواه : يدعى انه يصف ما يحس ولا يزيد .

لا نريد ان نقول : ان العلم اخفق فى تعزية الانسان وتعمير قلبه وضميره ... كلا بل نريد اكثر من ذلك .. نريد انه اخفق فى دعواه الوحيدة التى كان خليقا أن ينجح فيها ، لأن اصحابه كانوا يسمونه بالعلم (المادى) وهو اليوم لا يعلم من المادة الا أنها حركة مجهولة ، فى فضاء مجهول .

نعم كل مادة تتركب من ذرات ، وكل ذرة تنفلق فتصبح شـعاعا ، وكل شـعاع هو حركة فى (الأثير) ... وما (الأثير) ؟ .. شىء كلا شىء .. ليست له حـدود ولا اوصاف ، ولا مقادير يعرفها العلماء .

فالعلم المادى : لا يعرف المادة الا فى هذه الحدود ، ومن الأدب اذن : أن يتواضع كثيرا ، فلا يحتكر المعرفة ، ولا ينكر على غيره ان يحاولوها حيث استطاعوا .

وهذا هو الجديد على العلم الحديث ، انه لا يعلم كل شىء لأنه مقيد بالحواس . واذا كانت الحواس لا تعلم جميع الأشياء فهل يعلمها الفكر ؟ كلا ـ أيضا ـ لأن الفكر محدود ككل شىء فى الانسان .

فلابد للمعرفة من وسيلة أخرى مع وسائل الحس ، ووسائل : التفكير ، ولابد لهـا من البصيرة ، أو من البديهية ، أو من الالهام .

وذلك هو مجال التصوف ، أو مجال الدين ، فهـذه هى المعرفة التى يتعاون عليهـا الحس ، والفكر ، والالهام . »

... المنقذ من الضلال

أخبار الكتاب العربي في العالم

● من بين المعاجم العربية التى تنهض « الدار المصرية للتأليف والترجمة » بعبء تأليفها **معجمان** تلح الحاجة من زمن بعيد على وجودهما الى جانب المعاجم الأخرى التى تقوم مادتها على دلالة الألفاظ .

المعجم الأول يجمع بين **الترادف اللفظى والترادف الأسلوبى** فهو فى الترادف اللفظى يضم تحت كل مادة من مواده ما يدور من الألفاظ حول مسمى واحد ، اى انه يجمع فى اطار واحد كل ما يتصل بمسمى معين **كالبطء** مثلا ، فيسلك معه كل الألفاظ التى تعبر عن **البطء** فيما تضم اللغة ، كالتراخى والريث والتخلف والدبيب والاتئاد وغير ذلك .

أما فى **الترادف الأسلوبى** فانه يجمع العبارات والجمل التى تدور حول معنى واحد كذلك ، بحيث يمد الكاتب بالعبارات الصحيحة التى تؤدى هذا المعنى فى وضوح وبلاغة ودقة تعبير مما دار على ألسنة الأدباء فى أزهى عصور الأدب العربى ، فهو فى مادة **البطء** ايضا يقدم أمثلة فى الأسلوب مثل : « مشى الهوينا » ، « زحف زحف السلحفاة » ، « قريب الخطو » ، « رب عجلة تهب ريثا » ، « يمشى رويدا » ، « يمشى على رسله » ، « جاء دبريا » .

وهذا النوع من المعاجم كان الأقدمون يعرفون قدره ، ويعلمون فائدته ؛ فكان لهم فى هذا الميدان الترادفى نشاط ملحوظ لا يقل عن نشاطهم فى الميدان اللغوى . ولكن هذا النوع فقد العناية به على حين ظلت العناية بالميدان اللغوى موصولة . وكان نتيجة هذا التوقف جمود أقلام الكتاب عند جملة من الألفاظ والتراكيب محدودة لا تكاد تبلغ من مجموع اللغة الا القليل .

و **المعجم الثانى** تقوم مادته على **تداعى المعانى** . وهو **أول معجم** من نوعه يوضع فى اللغة العربية . ولقد كانت فرنسا هى السابقة الى وضع معجم فى هذا الباب : ثم تلتها انجلترا ، وها هى مصر تأخذ دورها فى هذا الميدان بعد هاتين الدولتين .

وهذا المعجم يتناول موضوعات يدعو معناها الأول معنى آخر يتصل به ويرتبط . فهو حين يتناول ما يتصل بالمسرح من أماكن وادوات مثل القاعة والمقصورة والمدرج والأبهاء وغير ذلك ينتقل الى ما يتصل بالتأليف المسرحى كالمأساة الغنائية والمسلاة الغنائية والملهاة والحوار الى غير ذلك من المصطلحات ، ثم بالاخراج كالحركة والفصول والمشاهد والعقدة وحلها ؛ مما

يقدمه مدير التحرير

يتسلسل من ذلك كله من المعانى . وهكذا فى كل فن ولون ، وبذلك يقدم للكتاب ذخيرة من المعانى المستحدثة .

وهذان المعجمان سيكونان زادين للكتاب والمنشئين يمدان الحياة الثقافية بالغذاء الحى، ويبعثان فى الالفاظ والأساليب والمعانى الحركة والحيوية ، وينهضان بالتأليف والترجمة الى القمة من الجمال والابداع .

● كتاب « الأغانى » الذى الفه أبو الفرج على بن الحسين المنتهى نسبه الى مروان بن محمد آخر خلفاء بنى امية ، والمعروف بالأصبهانى لأنه ولد ونشأ بأصبهان سنة ٢٨٤هـ. وتوفى ببغداد سنة ٣٥٦ هـ . قال فيه ابن خلدون فى مقدمة تاريخه أن مؤلفه « جمع فيه اخبار العرب واشعارهم وانسابهم وايامهم ودولهم ، وجعل مبناه على الغناء فى مائة الصوت التى اختارها المغنون للرشيد ، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه . ولعمرى انه ديوان العرب ، وجامع أشتات المحاسن التى سلفت لهم فى كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ، ولا يعدل به كتاب فى ذلك فيما نعلمه . وهو الغاية التى يسمو اليها الأديب ويقف عندها ، وانى له بها ! » .

هذا الكتاب الذى يعد من أثمن ما ترك لنا الأقدمون من تراث خالد ، طبع لأول مرة بالمطبعة الأميرية سنة ١٢٨٥ هـ فى عشرين جزءا تنتهى بأخبار عمارة بن عقيل . ولكن المستشرق الأمريكى رودلف برونو قام بطبع جزء آخر سنة ١٨٨٨ م (١٣٠٥ هـ) جمع فيه عددا من الترجمات التى لم ترد فى الأجزاء السابقة . وقام المستشرق الايطالى اغناطيوس جويدى بعمل فهرس أبجدى للشعراء والقوافى والأعلام والأمكنة واشارة الى كل خبر ورد فى ترجمة الشعراء وغيرهم ممن وردت أسماؤهم فى الكتاب طبع فى ليدن سنة ١٨٩٥ ــ ١٩٠٠ فى جزءين . ثم تولى الحاج محمد الساسى طبع كتاب « الأغانى » مرة أخرى فى ٢١ مجلدا ونشر معه فهرسا فى جزءين بنى على فهرس جويدى وقد قام باعداده المرحوم الأستاذ محمد مسعود .

وفى سنة ١٩٢٧ بدات « دار الكتب المصرية » فى اعادة نشر هذا الكتاب محققا ومشروحا ومقابلا على عدد من المخطوطات » وقد اتمت طبع ١٦ جزءا منه تعادل أربعة عشر جزءا وقسما من الجزء الخامس عشر من الطبعتين السابقتين .

ثم أخذت «الدار المصرية للتأليف والترجمة» على عاتقها اتمام نشر الأجزاء الباقية منه وعهدت بأمر تحقيقها الى عدد من المحققين ، ورأت أن تيسر للناس هذا الكتاب بثمن زهيد ــ لا سيما وأن بعض أجزائه كان قد نفد من زمن بعيد وارتفع ثمنها ارتفاعا فاحشا ــ فأعادت فى العالم الحالى طبع الأجزاء السابقة بطريقة «الأوفست» على طبعة دار الكتب . وظهرت له طبعة أخرى منذ أعوام نشرت فى بيروت .

وللمكانة الرفيعة لهذا الكتاب الكبير فكر جماعة من الأدباء فى اختصاره وتصدوا لهذا العمل الضخم ، وكانوا فى ذلك فريقين ، سلك كل فريق مسلكا مختلفا عن مسلك الفريق الآخر، وانتهج منهجا مغايرا ؛ فمنهم من حافظ على ترتيبه ، ومنهم من بدل هذا الترتيب .

وكان فى مقدمة الذين اختصروه :

الوزير الحسين بن على المعروف بابن المغربى المتوفى سنة ٤١٨ هـ .

ثم القاضى جمال الدين محمد بن سالم المعروف بابن واصل الحموى المتوفى سنة ٦٩٧هـ وسمى اختصاره « **تجريد الأغانى من ذكر المثالث والمثانى** » . وقد حققه الأستاذ الدكتور طه حسين والأستاذ ابراهيم الأبيارى ، ونشرت منه مطبعة مصر خمسة اجزاء وسيظهر الجزء السادس ، ويلحق به السابع مشتملا الى جانب مادته على الفهارس .

وقد صدرت من هذا **التجريد** طبعة نشرتها « مطابع الشعب » باسم « الأغانى » فى حلقات متسلسلة مصورة بالأوفست عن طبعة مطبعة مصر .

واختصار ابن واصل يسير على ترتيب الكتاب الأم ، ولكنه يجمع اخبار كل من ترجم لهم الأصفهانى فى اطار واحد .

ومن بين من اختصروه أيضا معاصر لابن واصل هو الامام اللغوى جمال الدين محمد بن المكرم المعروف بابن منظور الافريقى المصرى صاحب معجم « لسان العرب » أوسع المعاجم العربية مادة وذيوع صيت ، وهو المتوفى سنة ٧١١ هـ . وقد خالف معاصره فرتب أسماء الشعراء والمغنين على حروف الهجاء ، وسماه « **مختار الأغانى فى الأخبار والتهانى** » .

واختصره قبل ابن واصل وابن منظور وبعدهما آخرون ، كما اختصره من المحدثين : الأب انطون صالحانى وسماه « **رنات المثالث والمثانى فى روايات الأغانى** » وذلك فى جزءين أولهما فى أخبار المغنين والشعراء ، والآخر فى أيام العرب فى الجاهلية والاسلام ، وقد طبع فى بيروت مرتين سنة ١٨٨٨ وسنة ١٩٢٣ . ثم اختصره الأستاذ الشيخ محمد الخضرى فى ثمانية أجزاء وسماه « **مهذب الأغانى** » ، وقد حذف منه الأسانيد وروى الشعر كما قاله الشعراء لا كما غنى به المغنون ، وقسم الشعراء فيه الى ثلاث طبقات .

أما المختصر الذى وضعه ابن منظور صاحب « لسان العرب » باسم « **مختار الأغانى** » فكانت « المطبعة السلفية » قد فكرت فى طبعه ، فنشرت منه الجزء الأول سنة ١٩٢٧ وينتهى الى آخر أخبار اسحاق الموصلى ، ثم توقفت عن النشر .

ولكن « الدار المصرية للتأليف والترجمة » قد نهضت بهذا العبء ايضا وعهدت أمر نشر « **مختار الأغانى** » محققا فى ثمانية أجزاء الى طائفة من الأساتذة المحققين لينشر فى سلسلة « **تراثنا** » التى تتولى نشرها . وسيظهر خلال هذا الشهر **الجزء الأول** الذى تم طبعه بتحقيق الأستاذ ابراهيم الأبيارى ، وهو ينطوى على اثنتين وخمسين ترجمة تبدأ من أبى العتاهية اسماعيل بن القاسم ، وتنتهى باسماعيل القراطيسى .

وتقوم المطبعة الآن بطبع **الجزء الثانى** منه بتحقيق الأستاذ عبد الستار احمد فرج ، ويوشك هذا الجزء على اللحاق بسابقه فى الظهور قريبا .

وتمتاز الطبعة الجديدة بالرجوع الى نسخة كاملة من الكتاب موجودة بالخزانة التيمورية مع مقابلتها على ما ورد فى كتاب « **الأغانى** » نفسه وفى كتاب « تجريد الأغانى » .

● فى سلسلة « **التراث العربى** » التى تصدرها وزارة الارشاد والأنباء فى الكويت حقق الأستاذ عبد الستار احمد فراج كتاب « **خلق الانسان** » للعالم اللغوى ثابت بن أبى ثابت من علماء القرن الثالث الهجرى وتلميذ الأصمعى ومن أصحاب ابى عبيد القاسم بن سلام .

وهو يتناول فى هذا الكتاب الانسان وهو جنين الى أن يجنه القبر ، فيذكره من رأسه الى قدمه عضوا عضوا ، ويذكر ما يقال فى كل عضو من مدح أو ذم مع الاستشهاد لذلك بالشعر الذى قيل فيه .

وقد ذكر القفطى فى كتابه « انباه الرواة على أنباء النحاة » انه « أجاد فيه حق الاجادة ، وأحسن فيه ما شاء ، وأربى على من تقدمه . وأحسن حالات المتأخرين الأخذ منه » . وفى مقدمة الذين اخذوا عنه ونقلوا منه العالم اللغوى ابو الحسن على بن اسماعيل الأندلسى المعروف

بابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ هـ. صاحب « الكتاب المخصص » فقد نقل من كتاب ثابت الكثير فى باب خلق الانسان ويقرن كل ما ينقل عنه بذكر اسم « ثابت » الى جانب نقله .

وقد صنف فى هذا الضرب « خلق الانسان » — أى فى أسماء اعضائه وصفاته — جماعة من الأدباء واللغويين منهم ، كما يقول حاجي خليفة فى كتابه « كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون » : ابن قتيبة وابن فارس والأصمعى — وقد طبع كتاب الأصمعى فى بيروت سنة ١٩٠٣ — وابن الأعرابى والزجاجي وأبو بكر الانبارى وأبو عبيدة معمر بن المثنى وغيرهم وأحصى منهم أكثر من عشرين عالما غير هؤلاء الذين ذكرناهم .

● نشرت « دار العلم للملايين » فى بيروت كتاب « **اسرائيل : ذلك الدولار الزائف** » الذى الفه الفرد ليلنتال . وهو الكتاب الذى رفضت جميع دور النشر الأمريكية طبعه بالانجليزية أو القيام بتوزيعه ، فاضطر مؤلفه الى نشره باللغة العربية قبل أن ينشر الأصل الانجليزى .

والمؤلف — الفرد ليلنتال — أمريكى الجنسية، عين بعد تخرجه من جامعة كولومبيا فى وظيفة بوزارة الخارجية الأمريكية ، وشغل عدة مناصب دبلوماسية فى الشرق الأوسط ، وكان مستشارا للوفد الأمريكى فى مؤتمر سان فرنسسكو .

وهو يقوم — على الرغم من معتقده الدينى — بمناصرة قضايا العرب ومناهضة اسرائيل . وقد نشر سنة ١٩٤٩ مقالا فى مجلة « ريدرز دايجست » عنوانه « **راية اسرائيل ليست رايتى** » كان له صدى بعيد الأثر فى جميع انحاء العالم .

وفى سنة ١٩٥٤ نشر له « المكتب التجارى » فى بيروت كتابا عنوانه « **ثمن اسرائيل** » ، قام بترجمته الأستاذان حبيب ناحولى وياسر هوراى ، فنفدت طبعته الأولى ، واعيد طبعه مرة أخرى فى مدى شهر واحد .

كما نشرت له « دار العلم للملايين » فى سنة ١٩٥٧ كتابا آخر عنوانه « **هكذا يضيع الشرق الأوسط** » .

● صدر المجلد الثامن عشر من « **مجلة مجمع اللغة العربية** » وهو يضم طائفة من البحوث القيمة ، من بينها بحث للأستاذ الدكتور ابراهيم بيومى مدكور امين سر المجمع عن « **المصطلحات العلمية المعاصرة** » ، وبحث للأستاذ محمد فريد أبو حديد عن « **الأسلوب فى الأدب** » ، وآخر للأستاذ عبد الله كنون عن « **الكاتب الساخر لسان الدين بن الخطيب** » .

وثمة بحث للمستشرق الألمانى الأستاذ الدكتور « يوهان فك » الأستاذ بجامعة « هاله » فى ليبزج بألمانيا الشرقية سابقا ، وهو صاحب الكتاب القيم « العربية : دراسات فى اللغة واللهجات والأسلوب » وهو كتاب يشرح تطور الأساليب فى لغتنا من أول الهجرة الى القرن الرابع ، وكان المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار قد قام بترجمته الى العربية ونشر فى مصر عام ١٩٥١ . والدكتور فك من كبار المستشرقين الألمان الذين توفروا على خدمة الثقافة العربية ، وممن تخرجوا على الدكتور أوجست فيشر الذى كان عضوا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ونشر فى ليدن سنة ١٩٥٤ بمعاونة بروكلمان وشبولير وهوفنر بحوثا عن « العربية فقها وأدبا » وعن « تاريخ هذه اللغة » . أما بحثه الذى نشر فى « مجلة مجمع اللغة العربية » الذى نشير اليه فهو عن « **الأوزان العربية القديمة للشعر** » وقد قام بترجمته الى العربية مع التعليق عليه الأستاذ الدكتور مراد كامل عضو المجمع . وهذا البحث جدير بالنظر والمناقشة . فهو يقول ان أوزان البحور الخمسة عشر التى وضعها الخليل ابن أحمد فى دوائره الخمس هى فى الحقيقة أقيسة لا تتفق معها أشعار القدامى تمام الاتفاق، بل تخضع أشعارهم للزحافات والعلل .

ويقول ان نحاة العرب الذين درسوا اللغة لم يتحدثوا عن التنغيم ، لا فى النثر ولا فى الشعر، ولكنهم عالجوا الظواهر اللغوية بعملها فى صورتها الخطية .

وأورد مختارات من الشعر الذى تتفق أوزانه مع بحور الخليل ، وذكر أن طائفة من العلماء لم تتقبل بحوره ، وعارضت آراءه .

واختتم الدكتور فك بحثه بقوله : اننا اذا أردنا أن نفهم الأوزان العربية القديمة فهما صحيحا وجب علينا أن نبدأ من بقايا الأشعار العربية كما هى فنحللها بعناية حتى نصل الى فهم تصورها فهما تاريخيا . وبطبيعة الحال ان ما وضعه علماء العرب فى العصور الوسطى سيساعدنا فى ذلك ، ولكننا على أى حال لن نقف طويلا تحت حكم دوائر الخليل .

● لم تشغل مهنة الطب الدكتور عمر مكاوى عن متابعة الثقافة فى شتى ألوانها ، فهو كما يحمل الترمومتر ليتعرف درجة الحرارة وتطورات المرض ، يحمل القلم متتبعا التطورات الثقافية فى أعلى درجاتها ليتزود منها ولينقل عنها الى لغته ما يمدها بالغذاء الصحيح ، ويعالج فى خلال ذلك الجديد من المشكلات التى تشغل العالم فى هذا العصر .

وبهذا الطموح الثقافى وهذا الوعى لمشكلات العصر أقبل الدكتور عمر مكاوى على كتاب برناردشو « **دليل المرأة الذكية الى الاشتراكية والرأسمالية والسوفيتية والفاشية** » الذى ألفه برناردشو حين سألته احدى السيدات عن تعريف الاشتراكية ، فنقل الدكتور مكاوى هذا الكتاب الى العربية نقلا أمينا ودقيقا وواعيا ، وقد نشرته فى جزءين منذ قريب « الدار المصرية للتأليف والترجمة » بالاشتراك مع «دار القلم».

ثم تابع النظر فى آثار شو التى لم تترجم بعد يقرؤها ليتخير منها ولينقل طائفة منوعة الألوان، فمن كتابه« **جوهر الابسنية** » يقدم ثلاثة فصول عرض فيها شو لمسرحيات ابسن ، كما تناول مقال شو « **فاجنر الثورى** » الذى أضافه الى كتابه « **الفاجنرى الكامل** » وهو الذى ترجمه الدكتور ثروت عكاشه بعنوان « **مولع بفاجنر** »، ثم يختار له أجزاء من **مقالات ومقدمات عن شكسبير** الذى كان يرى أنه لم تكن له فلسفة واضحة أو مفيدة لأنه كان يقف على رأس حقبة معينة من التاريخ ، ويعرض لنا نماذج من **حديثه عن داروين** . واختار من مقالاته السياسية أربعا هى : « **المساواة** » وهى مقالة كتبها سنة ١٩٤٤ يرى فيها أن مشكلة المساواة ليست مساواة فى الفرصة ولا هى مساواة رقمية فى الدخل بين الناس بل هى مشكلة الحد الأعلى للأجور وللدخل المسموح به فى مجتمع يبنى الاشتراكية . ومقال « **عن الفقر** » يأمل من وراء اختياره أن يصدر عندنا تشريع أو ما يقوم مقام التشريع يحرم الدعوة الى الفقر أو استحسانه أو الصبر عليه ، بل يضعها فى مرتبة الخيانة لقضية الاشتراكية والحضارة ، ومقال « **مشكلة الأرض** » يقول عنه انه مقال مفيد فى وقت يدور فيه سباق غير عادل بين مدينتنا وقريتنا وهو سباق سيظل فترة طويلة يمثل أخطر مشاكل تطورنا الاقتصادى والنفسى . أما المقال الرابع فهو « **الفساد فى الدولة** » وهو تنبيه وتحذير الى أن الايمان بالاشتراكية ضرورى لتطبيقها ، وأنه لا اشتراكية بدون اشتراكيين ، وأن التنظيم السياسى الذى عقدنا العزم على تشكيله — حكومة وشعبا — هو الضمان الحقيقى لتثبيت دعائم انتصاراتنا الاشتراكية .

كما اختار من آثاره قسما من خطابه الطويل فى أمريكا وفيه نقد لاذع للنظام الرأسمالى الاحتكارى هناك .

هذه المختارات وغيرها من آثار برنارد شو التى انتهى اليها الدكتور مكاوى بعد حيرة فيما يختار وفيما يدع ، هى من أمتع ما انضم عليه هذا الجزء الذى نشرته له « دار الهلال » فى سلسلة « كتاب الهلال » بعنوان « **مختارات من برنارد شو** » .

ولعل هذا الاختيار يكون حافزا للدكتور عمر مكاوى على نقل آثار برنارد شو الى العربية وحافزا لغيره ممن قدروا آثاره حتى تظفر المكتبة العربية بالكثير من مؤلفات هذا الرجل .

● وأعادت « دار الهلال » فى سلسلة « **كتاب الهلال** » أيضا نشر كتاب « **أساطير الحب والجمال عند الاغريق** » لفقيد الأدب والثقافة والفن المرحوم الأستاذ درينى خشبة ، الذى افتقدناه فى العاشر من شهر يولية من العام الماضى .

وكان الأستاذ درينى خشبة ــ رحمه الله ــ لقد عنى منذ أكثر من ربع قرن بتقديم الأدب اليونانى الى قراء العربية ليصل بجهوده جهود الأقدمين من العرب الذين عنوا بآثار اليونان فى الفلسفة والمنطق فترجموها الى لغتهم ، ومن ثم سلمت من الضياع ، وعرفها الغرب عن طريق العرب . ولكن الأقدمين من العرب لم يعنوا بنقل الأدب اليونانى وتوجسوا منه خيفة ، ولعل السبب فى ذلك الاحجام هو خوفهم على الدين الجديد من وثنية يفيض بها ذلك الأدب . ولكن هذا الدين الذى ثبتت عقيدته ورسخت على الزمن ثلاثة عشر قرنا وعرف العالم فى ظله أروع المبادىء الانسانية وأسماها وبهره بحضاراته وثقافاته لم يعد يخشى عليه من شىء كهذا ، فلا عذر اذا فى الاحجام عن نقل تراث الأدب اليونانى الى لغتنا ، وهذه كانت رسالة درينى خشبة أثابه الله عن جهوده الأدبية خيرا ورحمة.

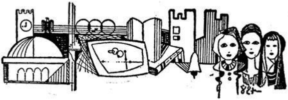
والكتاب الذى تعيد « دار الهلال » نشره بعد أن نفدت طبعته الأولى التى نشرت فى « مطبعة الرسالة » منذ أعوام طويلة ، يضم كل هذه الأساطير ، ويعرضها المؤلف بأسلوبه الشاعرى المشرق الذى يجمع بين دقة البحث وجمال الفن ، فهو لم ينقل ما نقل من آيات الأدب اليونانى نقل ترجمة ، ولكنه نقل رواية ؛ وهذه الطريقة هى التى آثرها شعراء أوروبا الحديثة حين قدموا لبلادهم ذلك التراث اليونانى التليد ، وهى كذلك الطريقة التى أقرها وجرى عليها الأستاذ توماس بلفنش المتوفى سنة ١٨٦٧ حينما نقل الى الانجليزية معظم الأساطير اليونانية عن أوفيد و ڤرجيل .

● صدرت أخيرا فى موسكو ترجمة باللغة الروسية لرواية « **الدروب الصاعدة** » للروائى الجزائرى « مولود فرعون » . وقد طبع من هذه الترجمة ٦٥ الف نسخة .

وجاء فى مقدمة الترجمة الروسية أن مولود فرعون يستحق لقب المتغنى بأمجاد وطنه ، وانه على الرغم من أنه حياته قد انتهت بميتة مفجعة فان أعماله ستظل خالدة لا تموت .

والرواية التى ترجمت الى الروسية وهى « **الدروب الصاعدة** » هى ثالث آثار هذا الأديب الجزائرى الذى جاهد فى سبيل تحرير وطنه . وقد أصدر قبلها روايته « **ابن الفقير** » التى يروى فيها أحداث حياته ، ثم « **الأرض والسلام** » . وقد اغتيل مولود فرعون برصاص الأعداء يوم ١٥ مارس سنة ١٩٦٢ فى ضاحية « البيار » احدى ضواحى مدينة الجزائر .

حسن كامل الصيرفى



تعريفات

الـــرافـــعى ومىّ

تاليف : عبد السلام هاشم حافظ .

الناشر : الـــدار المصرية للتاليف والترجمـــة ١٥٤ صفحة ١٧ × ٢٤ ت ٩ قروش

أديبـــان كبيران تناولهما هذا الكتاب ، عاشا فى عصر واحد وربطتهما وشائج أدبية واحدة ... ألرافعى ومى .

والكتاب ينقسم الى قسمين ، ومن الأوفق أن نقول كتابين . الأول يتنـــاول مصـــطفى صادق الرافعى الكاتب والشاعر . والثانى : يتناول الآنســـة مى ، وهى على ما نعرف تقف فى طليعة الاديبات المعاصرات فى سجل النهضة ألنسائية .

واذا كان الكاتب قد وفق فى شىء فان أهم ما وفق فيه انه أعاد الى ذاكرة هذا الجيل قصة أديبين كبيرين ، وقصة المأساة التى عاشا فيها كلاهما ، أما ما عدا ذلك فلنا عليه تعليق .

اولا : بالغ الكاتب فى ابراز الصلة التى تربط بين الرافعى ومى ، هذه الصلة عنده صلة حب ، واذا نحن افترضنا وجود هذه الصلة ، فلابد أن نأتى بالشواهد والبراهين الدالة عليها والبعد كل البعد عن التعميمات .

ثانيا : ما كان يجب الجمع بين الرافعى ومى فى كتاب واحـــد ، فكلاهما أديب جليل الشأن وله مكان معروف فى تاريخ النهضـــة الأدبية المعاصرة ، وكان من الافضل أن يستقل كل منهما بكتاب واحد أو أكثر من كتاب أن شئنا الانصاف .

ثالثا : أن المؤلف كان يأتى بنصوص طويلة فى ثنـــايا الكتاب كان من الممكن الاستغناء عنهـــا ، أو الاستغناء عن جزء منها ، لأن حجم الكتاب لا يتسع لهـــذه النصوص جميعها ، أما اذا أصر المؤلف على الاتيان بها كاملة ، فمن الواجب عليه عندئذ أن يختص كل واحد منهمـــا بكتاب .

رابعـــا : أن المؤلف اعتمد فى كتـــابه على الاقتباس مما كتبه الأستاذ محمد سعيد العريان والأســـتاذ محمد عبد الغنى حسن وما ورد فى رسائل الرافعى التى أعدها ألاستاذ محمود ابو رية ، حتى أن الكتاب يبدو الى حد بعيد أنه خلاصة أو تلخيص لهذا الكتب الثلاثة .

على أن هذا كله لا يغمط حق المؤلف فى التقدير ، لأنه جدد فى كتابه ذكرى مصطفى صادق الرافعى والانسة مى ، وهذا جهد مشكور وفضل لا ينكر .

دليل المعمل لكيمياء الكليات

تاليف : و . ب كنج وآخرين

تقديم : الدكتور حسين سعيد

ترجمة : الدكتور محمود أبو العمايم وآخرين

مراجعة : الدكتور أحمد مصطفى

الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرأنكلين ٢٥٢ صفحة ١٧ × ٢٤ ث ٨٧ قرشا

من المشـــاريع الهـامة التى تضعها الدولة فى عهدها الحاضر موضع التنفيـذ مشروع تعريب المواد العلمية التى تدرس بكلياتها ، تيسرا للطلاب واخلاصا للقضية القومية وتوطيدا لها .

وهذا الكتاب ـ كما جاء فى المقدمة ـ « يحقق مطالب الطلاب المبتدئين فى دراسة الكيمياء بكليات العلوم والمعلمين ، وهو يكفى لتغطية برنامج عام كامل ، ولقد جاء هذا الكتاب نتيجة للرغبة فى اعطاء الطالب الذى يبدأ دراساته العالية فكرة عن اتجاهات الكيمياء النظرية الحديثة وما استحدث فى قوانينها وتراكيبها فى السنوات الأخيرة » .

وقد روعى عرض مادة الكتاب عرضا متسم بالبساطة والوضوح ، ويستهدف دفع الطالب الى التفكير فى تفسير وفهم الظواهر والنتـــائج التى يحصل عليهـــا بعد اجراء التجارب » .

نســـاء خالدات

تأليف : أنور أحمد .

الناشر : الدار القومية ـ مذاهب وشخصيات ـ ١٢٦ صفحة ١٧ × ٢٤ . ث ٢٥ قرشا

المرأة حين تعطى لها الفرصة تستطيع أن تلعب دورا هاما فى التاريخ .

هذا هو الغرض الاساسى من هـــذا الكتاب ، أهداه المؤلف « الى المرأة العربيـــة المعاصرة التى حطمت أغلالها وانطلقت تشارك بعمق وايجابية فى صنع الحياة » .

والأستاذ أنور أحمـــد له نشاط سينمائى معروف ، وقد اهتم فى السنوات الأخيـرة بالكتابة عن المرأة وعرض مشاكلها فى بعض المجلات النســائية ، الى جانب ما كتبه من مقالات متعددة رسم من خلالها . صورا تاريخية لمشاهير النساء ، ويبـــدو أن هذا الكتاب هو تجميع لبعض هذه المقالات أو جلها .

والمؤلف فى عرضه لهـــذه الصور التايخية لم يتقيد بحرفية الواقع كما هو موجود فى النصوص القديمة ، انما استمد من خيـــال الأديب ومن لوازم الحبكة القصصية ما جعله يخرج كتابه فى شكل مشوق جذاب .

والشخصيات التى عرض لهـــا المؤلف فى الكتاب ترتبط جميعها بتاريخنا العربى أو تاريخنا القديم والحديث بوجه عام ، فبـــدأه بالحـــديث عن سميراميس البطلة الآشورية الشهيرة ، وتلاه حديث آخر عن بلقيس ثم زنوبيا وكليوباترة وأسماء بنت أبى بكر وخولة بنت الأزور وصبحة زوج الحكم المستنصر خليفة الأندلس وست الملك شقيقة الحاكم بأمر الله وشجرة الدر .

واذا كان ثمة خط فـكرى عام يجمع هذه القصص فى اطار واحد ، فهو يتمثل فى رغبة الكاتب فى ابراز الدور الهام الذى لعبته المرأة العربيـــة فى العصور التاريخية المختلفة ، وهو دور يجب الا يغفل ، ويجب أن نجعله محل العناية والتقدير .

القصة العربية القديمة

تأليف : محمد مفيد الشوباشى .

الناشر : الدار المصرية للتـأليف والترجمة ـ المكتبة الثقافية ـ ١٢١ صفحة قطع صغير ث قرشان

القصة فن من الفنون التى تنتمى الى العصر الحديث أو تنتمى الى الآداب الأوربية بصفة خاصـــة . هذا هو الاعتقاد الشائع عند بعض محبى هذا الفن والعاملين فيه ، وهذا أيضا ما تولى مؤلف هـــذا الكتاب دحضه وتفنيده . فالقصة كغيرها من فنون الأدب وألوانه لها عهد طويل فى تاريخ الانســانية معرقة فى القـــدم ، ولا يستقيم منطقيا أن ينشأ فن دون أن تكون له جذور وبذور .

ذلك هو الهدف الأول الذى توصل اليه الأستاذ المؤلف فى بحثه هــذا . والهدف الثانى انه أراد أن يبرز أهمية الدور الذى لعبــه العرب فى تاريخ القصة ، واستطاع أن يعطينا صورة طيبة عن هذا الفن وتطوره عند العرب منذ عهد ما قبل الاسلام حتى أفول نجم الحضارة العربية .

واذا كانت القصة الأوربية الحديثة تدين بالفضل الكبير لرواد من أمثال بوكاشيو وتشوسر وسرفنتس ، فان هؤلاء جميعا تأثروا بالقصة العربية بعد انتقالها الى أوربا عبر صـــقلية وبلاد الاندلس ونتيجة للحروب الصليبية مع فنون العرب الأخرى وعلومهم المجيدة المزدهرة .

وقد وفق المؤلف فى أشياء عديدة لحظناها من خلال الكتاب ، فلا يجب أن ننسى انه أعطانا تعريفات مختصرة لبعض القصص العربيـــة الشهيرة والتى لا تزال باقية فى ضمير هذا الشعب وفى تراثه الخالد مثل قصة الزير سالم وعنترة وديك الجن والبراق وألف ليلة وليلة .

ولكن لماذا لم يكتب للقصة العربية الحديثة أن تكون امتدادا لازما للقصة العربية القديمة ؟ .

ان المؤلف يتحمس فى رأيه الذى يقول أن القصـــة العربية القديمة هى أساس القصـــة الأوربية الحديثة ، ولا يخفى أنه على نهج هذه القصة الأخيرة سار القصصيون العرب المحدثون . وهـــذا رأى نحترمه ونقدر لصاحبه انصافه وحسن تقديره للأمور ، لكنه أيضا رأى لا يكفى لشرحه كتاب صغير .

التحمس للقضية شىء والتوفيق فى عرضها شىء آخر ، صحيح أنه لا يخفى أثر القصة العربية القديمة فى القصة الحديثة بوجه عام عربية وأوربية . لكن هذا ليس معناه امتداد هـــذا التأثير من حيث فنية العرض وقواعده ورسم الأشخاص وتركيب البنية والحبكة ، لأن الفضل الأكبر فى هذا يرجع الى أوربا التى لم تكتف بالنقل عن العرب ، وانما نقلت أيضا من تراثها اليونانى واللاتينى والجرمانى ، وبعد ذلك من تراثها المسيحى ، وما جرى من نهضة العلوم والمعارف وارتياد آفاق جـــديدة واتصال بشعوب أخرى والتزود من آدابها . وهذا كله مما مهد للقصة الحديثة .

واذا كان المؤلف قد قارن فى كتابه بين مضمون بعض القصص العربيـــة ومضمون بعض القصص الأوربيـــة الشهيرة ، واستنتج من هذا أن الأخيرة مستقاة من الأولى أو منقولة عنهــا ، الا أن هذا المضمون قد يكون فى بعض الأحيان مجرد نزعات فى النفس الانســانية وميول موجودة عند كل الشعوب ، أو بمعنى آخر ان هـــذا المضمون الأوربى ربما كان يبقى دون حاجة الى تأثير عربى معين .

هذا تعليق مبسط على هذا الكتاب الذى ألفه أستاذ محيط بموضوعه ، وهو كما نعرفه أديب له عهـــد طويل بكتابة القصة ، وما أخذناه على الكتاب لا ينقص من قدر صاحبه ، لأنه استطاع أن يصل فيه الى توفيقات عديدة لا يتسع المجال لذكرها ، وان ذكرنا بعضها ، ومن أراد أن يتزود ويستفيد فليطالع الكتاب .